

J A D A L

سيريل مارتينيز

المكتبة المظلمة

ترجمة
وليد بن أحمد

رواية

جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

المكتبة المظلمة

المكتبة المظلمة

سيريل مارتينيز

ترجمة: وليد بن أحمد
العنوان الأصلي باللغة الفرنسية
LA BIBLIOTHÈQUE NOIRE
By Cyrille Martinez
2018
الطبعة الأولى: أغسطس 2022م
ISBN: 978-603-04-2814-4

جدل
منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING
دولة الكويت
المملكة العربية السعودية
جمهورية مصر العربية
(+965) 99900912
(+966) 554658820
WWW.JADALBOOKSTORE.COM
JADAL.PUBLISHING
JADALBOOKSTORE
رقم الإيداع: 1444/1115

JADAL

سيريل مارتينيز

رواية

المكتبة المظلمة

ترجمة

وليد بن أحمد

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة ترجم
Tarjim Initiative

جدل
منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

1
قارئ في خطر

قرّرت قضاءَ بعض الوقت في حرم أضخم مكتبة في البلد وأعرقها. كنت أرتحل نحو المجهول دون أن أحجز كتاباً واحداً، أو أدوّن قائمة بالكتب. في الواقع، لم اطّلع حتى على كتالوج الكتب، وقصدت المكتبة الكبرى خالي الذهن، محاولاً إقناع نفسي بأنّ كتاباً ما كان ينتظرني هناك دون شكّ.

كنت أجهل عنوان ذلك الكتاب، ولم أكن أعلم بِمَ يتعلّق، ولا حتى شكله المحتمل. كلّ ما كنت أستطيع قوله أنني لم أكن قد قرأته بعد. أمّا هو، في المقابل، فقد كانت لديه فكرة ضافية عمّن أكون. كان قد اطّلع على هويّتي قارئاً، ولم تغب عنه ميولاتي وانتظاراتي.

كان أحد الكتب في انتظاري داخل المكتبة الكبرى، وكنت أعتقد أنّه قد كُتب خصّيصاً من أجلي.

قبل ذهابي إلى هناك، كنت قد شغلت نفسي بجرد الكتب في مكتبتي الخاصة، فاستللتُ الكتب من الرفوف الواحد تلو الآخر، مداعباً أغلفتها الناعمة، والبرّاقة، والمكسوّة غباراً، والقبيحة، وقمت بترتيبها قليلاً. لم أقم بذلك على سبيل المتعة، أو إحياءً لذكرى مطالعاتي، أو للاستمتاع بثراء وتنوع مجموعتي، أو حتى لترتيبها. خلافاً لذلك، كنت أتفحّص مكتبتي على أمل العثور على كتاب لم أقرأه بعد.

كان قد سبق لي أن وضعتُ يدي على كتاب لم أكن أظنّ أنني أملك نسخة منه، أو أنني نسيت وجوده. كنت أفتح طيّاته، وأعثر على ضالّتي منذ سطوره الأولى: هذا ما أحتاج إليه تماماً. من فرط تكرار الأمر، صرت أشكّ في أنه كان من قبيل المصادفة. تكرّرت الظاهرة كثيراً، فلا يمكنني الحديث عن ضربة حظّ. أعتقد أن تلك الكتب كانت تختفي عنوةً في انتظار حلول لحظتها؛ تلك اللحظة التي أكون فيها غير منشغل لتسقط بين يديّ. لقد خلصت إلى اقتناع بأنّ القرّاء لا يختارون كتبهم دوماً؛ إن الكتب، في ظلّ ظروف ما، هي من تختار قرّاءها.

بعد مرور ثلاثة أيام، هذه المرّة، لم يبرز كتاب واحد من رفوف مكتبتي. كان ذلك يعني أنه لم يتبقَّ لي شيء لأقرأه، ولا حتى أحد النصوص، أو المجلّات، أو المقالات. كان الأمر مرعباً. كان عليّ إيجاد أيّ مادة للقراءة، فحياتي بوصفي قارئاً صارت على المحكّ.

لا بدّ من أن المكتبة الكبرى، ذات الأربعة عشر مليون نصّ مطبوع، كانت لتعثر لي على حلّ. بفرصة واحدة على أربعة عشر مليوناً، لم تكن حظوظي بالفوز وافرة.

لم أتمالك نفسي عن البحث والاستفسار قبل ارتيادي المكتبة الكبرى. في خضمّ بحثي في الإنترنت، عثرت على نصّ يروي تاريخ المكتبة الكبرى. لم أميّز انتماء النص إلى مجال التاريخ من انتمائه إلى عالم الأدب، لكنّه كان يبعث على الثقة والطمأنينة. ربما كان نصاً أدبياً. وما العيب في ذلك؟ قيل إنّ كتاباً أدبياً جيداً يحوي حقائق أوفر من كتاب تاريخ سيّئ.

كنت قد علمت أن القرّاء لا يطلقون عليها اسم المكتبة الكبرى، بل المكتبة فحسب. وكان الآخرون في الوزارة، وفي أعلى هرم الدولة، يكنّونها بالجوهرة، أو إحدى العجائب، أو الكنز الوطني. لم يكن لفظ الكنز مجازاً. نحن نتحدّث هنا عن كنز حقيقي، كنز اللغة الوطنية، وكنز التراث المكتوب، والمطبوعات كافةً المنشورة في المملكة أو الجمهورية على حدّ سواء، والتي لم يكن يُسمَح لها بمغادرة أرض الوطن سوى في حالات إعارة استثنائية.

أعلم أنّ الحديث عن هذا الكنز صار اليوم على شاكلتين؛ فإما الحديث باحترام واعتزاز، وإما الحديث على سبيل المغالاة والسخرية.

كان الأسلوب الأول من شيم الساهرين على المؤسسة، والعلماء الذين يرتادونها، وكلّ أولئك الذين يملكون حججاً دامغة لاعتبارها كنزاً حقيقياً. كان يكفي ارتياد المعارض المتواترة؛ حيث تُعرض تلك المخطوطات النادرة والثمينة للتحقق من الأمر. كيف ننكر روعة تلك الطبعات الراقية، وتلك الكتب المسفّرة، والمنشورات السريعة النفاد، ومخطوطات الرسائل، وكتب الأطفال، والطبعات الفنية؟ كيف لا نفتتن بقِطع هذا الكنز؟

أما النمط الثاني، فقد اختصّت به المكتبات الصغرى، والمنشورات على نفقة المؤلفين، وكلّ تلك الكتب التي لم تنتجها دور النشر، والتي مهما حاولت الحصول على شرعيّة ما، فإنّ إدراجها في أحد الكتالوجات كان يُقابَل دوماً بالرفض، فتتملّكها المرارة والإحباط من معاملتها بوصفها كتباً دون أدنى قيمة.

على كلّ الذين يسخرون من حظوتها، والذين يجادلون قدرتها على تكريس بعض العناوين وإقصاء البعض الآخر، أن يعلموا أن المكتبة الكبرى لم تكن دوماً بهذا الثراء وتلك القوّة. بدأ الكنز مسيرته صغيراً. في البداية، لم يكن كنزاً ولا حتى مكتبة. بعد أن اطلعت على قصة إنشاء المكتبة، يمكنني القول إنها قصة مشوّقة وقديمة قِدَم ممارسة المطالعة العمومية، التي كانت تقريباً سبباً في نشأتها.

قبل نشأة المكتبة، كان على القرّاء الحصول على الكتب بوسائلهم الخاصة. لم يكن يقرأ سوى أولئك الذين كانوا يمتلكون مكتباتهم الخاصة. كانت القراءة منوطة بالأثرياء دون سواهم. لم يكن الجميع قادرين على الحصول على كتب من الجلد المزوّق. وقد فرضت العادة ألا نقرض أحداً الكتب سوى الأقرباء، ولم نكن نقرض أحداً شيئاً عدا الأغنياء.

ما إن يُولَع القارئ الثري بالمطالعة، ويدرك أيّ فائدة ينالها من هذا النشاط، ويعي خاصةً أنه قد أُصيب بمرضٍ يصعب علاجه يُدعى القراءة، حتى ينبري في بحث محموم عمّا يثري مجموعة كتبه، ولاسيما حديثة الصدور منها، لتكفيه مؤونة المطالعة أسابيع وشهوراً. قارئ صغير. قارئ جيد. قارئ مميّز. كانت أهمية القارئ تُقاس بمدى حجم مكتبته الخاصة.

في يوم عاصف وكئيب من أيام القرون الوسطى، قام أحد الرهبان بعرض تسعمئة وسبعة عشر مخطوطاً من مجموعته الخاصة في إحدى القاعات؛ ليطّلع عليها بعض القرّاء تحت بعض الشروط. حينها نشأت المكتبة، ومعها وُلدت فكرة المطالعة من قبل أكبر عدد ممكن من

القرّاء. لم تعد الكتب ممتلكاتٍ خاصة فحسب. وصار في وسع المرء الاطلاع على مخطوطاتٍ أخرى مختلفة عما يمتلكه.

حينها قال الملك: «أمرٌ مثير للاهتمام. أنا الملك، وأنا من يأذَن بإنشاء مكتبة ملكية في مملكتي. ستكون كنزاً حقيقياً، كنزاً من الكتب. سنحميه ونحفظه في حالة جيدة؛ ليطّلع عليه العامة، وتتوارثه الأجيال القادمة. لقد قرّرت أن نقتني الكتب الباهظة الثمن على حساب خزينة المملكة، وسنتلقّى أيضاً تبرّعات بالكتب، ونضع أيدينا على ميراث المولعين بالكتب، والنبلاء، والعلماء على حد سواء. سوف ندفع بسخاء للمؤلّفين لنحصل على مخطوطاتهم، ومسوّداتهم، ومراسلاتهم. وسنلجأ إلى المصادرة لو اقتضى الأمر. سوف نستولي على وثائق الكهنة، ومكتبات الوافدين، دون أن ننسى مجاميع الأمراء. وستنمو المكتبة الكبرى حتى عبر نهب الكتب الذي سنغضّ عنه الطرفَ خدمة للمصلحة العليا. سنستغلّ كلّ الحيل. يمكننا، على سبيل المثال، إصدار مرسوم ملكي يجبر كلّ الطابعين على إيداع نسخة من كلّ أثر مطبوع. وسندعو ذلك الإيداع القانوني، وسيكون الأمر طريقة قانونية لإثراء المكتبة دون أن ننفق فلساً واحداً. وسننظم مآدب لجمع التبرعات لكي نتمكن من اقتناء المخطوطات النفيسة. خامرتني فكرة مكيدة: سندعو رعاة المكتبة المتبرعين إلى موائد عامرة بما لذّ وطاب من أطعمة أفضل الطهاة، ونسقيهم ما شاؤوا من الخمر، وحين تقديم التحلية، سنثني على رعاية الآداب والفنون، فلا يغادر منهم أحد إلا وقد منحنا شيئاً من ماله. كل الوسائل ستكون متاحة من أجل إنماء الكنز. سيتطلب الأمر وقتاً ومالاً، لكنه لن يشكل عائقاً. لدينا كل الوقت، وسنعثر حتماً على

الأموال. وخلافاً لما يروّج، يوجد دوماً بعض المال مخفياً في أرجاء المملكة، وما علينا سوى البحث عنه واستخراجه».

بزوال الملَكية، آل الكنز إلى الدولة التي أعلنت:

«من هنا فصاعداً، المكتبة في كفالة الدولة. لذلك سوف نؤمِّم الكنز. راحت المكتبة الملكية، لتحيا المكتبة الوطنية. سنجمع كل المنشورات من الأكثر شيوعاً إلى الأكثر ندرة، وسنحمل على عاتقنا مهمة تكوين تراث والحفاظ عليه. ستقتني كل ما يتم نشره، وسنسدّ الفراغ بشراء الكتب القديمة».

كانت المكتبة الوطنية في حاجة إلى فضاء أرحب، فتمت مراجعة معمارها، ووُسّعت جدرانها، ووُضعت حلول جديدة للصفّ والتخزين باستعمال أنظمة تحرّك الرفوف المتقابلة بواسطة سكك حديد. ورغم هذه الحيل، ظلّت المخازن تغصّ بالكتب، وصار الوضع لا يحتمل، وقابلاً للانفجار. في الواقع، لا أحد يعلم ما الذي كان ليحدث لولا تدخل الرئيس المثقّف.

ما إن عُرض عليه المأزق حتى أخذ يفكّر بعمق، ثمّ رفع أحد حاجبيه، وأعلن قائلاً:

«الآن، صارت المكتبة الوطنية من شأني، وقد قرّرت تشييد مكتبة عصرية. أتخيّلها مكتبة مترامية الأطراف، تحوي كلّ المعارف، في كل المجالات، وتؤمّن اطلاعَ أكبرِ عددٍ من الناس عليها. ستستقبل المكتبة التلاميذ، والطلبة، والباحثين، والعمّال، والمعطّلين. سيتمكّن جميعهم من النفاذ إلى منظومة حديثة، رقمية، ويعثرون فوراً على المعلومات المطلوبة. سأقدّم هذه المكتبة الكبرى هديّة إلى الأمّة».

ما إن تحدّث الرئيس بشأن المشروع حتى انطلقت مراحل إنجازه، فتم اختيار موقعه، وانطلق البحث عن معماريين أكفاء. رُشِّح بعضهم إلى الخطة، وكان الرئيس يشرف على اختيار المرشَّحين بنفسه. حدث أن أشار بسبّابته إلى اسم أحدهم، فانصاعت لجنة الانتداب لأوامره، وفاز ذلك المعماري بالصفقة.

منذ تلك اللحظة، بدأت مراسم الانتقال، وغادرت المكتبة الكبرى موقعها التاريخي في مركزها القديم، الذي لم يعد يسمح بالتوسع، ولا يستجيب لقواعد السلامة الحديثة، وقانون الشغل على حدّ سواء، لتستقرّ داخل بناية جديدة: أربعة أبراج زجاجية مهيبة كلاسيكية النمط فوق فناء أمامي قُدّ من الخشب النفيس كانت تتوسّطه حديقة.

انتقلت الكتب، فاضطرّ الموظفون إلى اقتفاء أثرها دونما ابتهاج. كانوا يشعرون براحة أكبر داخل المركز القديم، رغم ضيق المكاتب وفضاءات العمل، لكن ذلك الموقع في قلب المدينة كان يقدّم امتيازات عديدة، فكلّ وسائل النقل من باصات وقطارات كانت تؤدي إليه، وكان يتوسط بيئة رائقة تزينها المطاعم والدكاكين والحدائق والمنتزهات. عبّر الموظفون عن خشيتهم من العمل في منطقة صناعية ونائية وخالية من مظاهر الحياة. لم تكن لديهم أدنى رغبة في العمل هناك في تلك المنطقة المعزولة، دون اعتبار خطر فقدان القراء. هل خطر ذلك في بالكم؟ ماذا لو أخطؤوا الطريق إلى المكتبة؟ ماذا لو هجروا المكتبة بتعلّة بُعدِها وصعوبة التنقل إليها؟ تخيلوا، مكتبة دون قرّاء؟ فضاءَ مطالعة خالياً؟ إنها كارثة. كيف ستبدو مكتبة دون قرّاء؟ أيّ اسم نطلق عليها؟ حسناً، سندعوها دوماً المكتبة، قالت الإدارة كعادتها بكلّ حزم.

رغم النضال، والحركات الاحتجاجية، والاجتماعات العامة، والتلويح بالإضرابات، والمناشير والعرائض، والمشادات الكلامية الحادة، لم ترضخ الإدارة، وحافظت على موقفها: سيتمّ الانتقال رغم كلّ شيء. في الواقع، اصطدم المحتجّون بحجّة قوية: بانتقالها، ستزداد المكتبة الوطنية اتساعاً، وتغدو المكتبة الكبرى. ما قولكم يا أصحاب النفوس المريضة؟

لم ينبس أحد ببنت شفة، فانطلقت حظيرة البناء في صمت عبّر عن موافقة الجميع. دنا أجل الرئيس المسنّ والمريض، فتظافرت الجهود لتشييد المكتبة الكبرى في الآجال ليتمكن من رؤيتها وتدشينها.

تمّ تشييد المبنى بتسرّع كبير، فوقفت هنات التصميم مطوّلاً حجرَ عثرة أمام استغلاله على الوجه الأمثل. لنغضّ الطرف عن ذلك. ها هو الرئيس يدشّن المؤسسة، ويضع حجر الأساس. وهكذا تمّ افتتاح المكتبة الكبرى.

شُيّدت المكتبة الكبرى في منطقة نائية من العاصمة، على ضفاف نهر معتم، فحوّلت بذلك محطة قطارات بضائع قديمة إلى قطب اقتصادي حديث ولامع وجذّاب، وما إلى ذلك من النعوت المضنية، التي لا أرى رابطاً يجمعها بالمطالعة العمومية، وإنما بأولئك الذين كانوا يعملون في المصارف والمؤسسات المالية، والذين يتلاءمون مع تلك الأوصاف، فلم يترددوا في مغادرة مقراتهم نحو مبانٍ جديدة من الحديد والزجاج، علامة على قوتهم وإرادتهم التربعَ على قمة البحث والتجديد. كل العبرة من ذلك أنَّ علينا عدم الاستخفاف بقدرة تلك النعوت على الإقناع: حديث، جذّاب، لامع.

لنواصل في السياق نفسه دون خشية، ولْنتحدثْ عن شراكة الجامعة مع المؤسسات؛ فقد تجمعت الكليات في حرم جامعيّ لتشكّل مجالاً مشتركاً بين الوسط الجامعي والمجالات المهنية الواعدة. تمّ إنشاء منتزهات من العشب الصناعي من أجل راحة الموظفين والطلبة، وسُمّيت بعناوين قصائد وروايات ومقالات فلسفية، إثنولوجية، وتاريخية، واجتماعية. استقرّ وزير الرياضة في المنطقة، فتبعته كل الجامعات المنضوية تحت لواء الوزارة. وتمّ تأجير الدور الأرضي لكلّ عمارة لماركات أزياء شهيرة. واستقرّ فيها أيضاً متجر مواد تجميل معروفة، واستغلّت مطاعم الأكلات السريعة سعر الإيجار الزهيد لتفتتح نقاط بيع جديدة، ثمّ تبعتها مكاتب المعماريين، ورواق للفنون، ومكتبة، ودكان لبيع معدات التزحلق على الجليد، بالإضافة إلى بائع لآلة البيانو، وستّ عشرة قاعة لعرض الأفلام.

تزيّنت المقاهي والمطاعم الصغيرة برفوف للكتب؛ مجموعات صغيرة بائسة للزينة فحسب. لا أحد يلمسها، أو يقلّب صفحاتها، أو يقرؤها، فتشيخ، وتنفق تحت نظرات الرواد اللامبالية، التي تفضل الاطلاع على قائمة المشروبات والأطعمة. لم تكن الكتب خداعاً بصرياً أو ورقاً للجدران، بل كانت كتباً حقيقية، كتباً ميّتة.

كان المشروع نجاحاً منقطع النظير في نظر الجميع. فرح المعماريون والمسؤولون بإنشاء فضاء ضخم منفتح. لا أحد يريد الحديث مجدداً عن الأبراج الكئيبة، والمستودعات، والمرفأ الصناعي، والأزقة الملتوية، ومشاهد الصفيح والقصدير، سوى على سبيل المقارنة، لإبراز الإنجاز الجديد.

منذ أعوام قليلة، كان الشعراء يكيلون المديح لتلك الأزقة، التي لا تفضي إلى أي مكان، لكن تلك الأزقة تحوّلت إلى شوارع فسيحة يملؤها المشاة، كما يحبّ التجّار تماماً. تمّ إنشاء كلّ شيء لننسى الصفيح والقصدير والشعراء الصعاليك. يُحكى أن هؤلاء الصعاليك قد انقرضوا بانقراض الأزقة القديمة. أرى أن مشاهد الصفيح، التي كان يجتازها الشغالون والشعراء، لم تختفِ تماماً. يسعنا لقاؤهم لو انغمسنا في قراءة الكتب. أعلم جيداً ما أتحدث عنه. أنا أقضي حياتي داخل الكتب.

كانت قاعة المطالعة في المكتبة العظمى تشهد إقبالاً شديداً؛ لذلك اخترت ارتيادها منذ افتتاحها الصباحي لأحصل على مكان.

اجتزت الشارع، في الساعة التاسعة إلا خمس دقائق، وصولاً إلى الفناء الخشبي الرمادي اللون؛ حيث يقبع مبنى للعروض المتزامنة يضمّ ستّ عشرة قاعة للسينما. كنت أفضّل السينما التقليدية. يوماً ما ستبدو كلمة مكتبة بالية أيضاً، وسيتم تعويضها بلفظ آخر. لا أريد أن أحيا إلى ذلك اليوم.

على الفناء الخشبي، بعض الأشخاص في حللٍ رمادية وزرقاء، يحملون أكواباً ورقية، وسمّاعات في آذانهم، تشغلهم هواتفهم، منهمكين في مراجعة تفاصيل يومهم، يغتنمون لحظات الحرية الأخيرة ليستمعوا إلى الموسيقا، أو يحتسوا بعض مشروبات الطاقة. بَدوا لي مجموعة من الموظفين، لكن من يضمن لي أنهم ليسوا مجموعة من القرّاء؟ كيف لي أن أحزر، وأنا أزعم أنني أحدهم؟ كيف يمكنني التعرّف إلى قارئ يشغله هاتفه ويحمل في يده مشروباً؟ كيف يمكننا التعرّف إلى قاتل دون سلاحه، أو قل: إلى قارئ دون كتابه؟ لا أدري حقاً. كل ما أعرفه أننا كنّا نسير في اتجاه واحد. تجاوزنا مبنى دور السينما، فهبت الريح

فجأة. ها هي الأبراج شامخة قبالتي. أتقدم منها بقلب خافق. أربعة أبراج زجاجية بمعمار كلاسيكي. إنها المكتبة الكبرى.

يحتوي البرج الأول على كل أنواع الروايات؛ الروايات الكلاسيكية والحديثة، الروايات الأكثر مبيعاً على مرّ الزمن، روايات الماضي والحاضر، روايات عن المستقبل، روايات السير الذاتية، روايات عن نجاحات رياضية، روايات عن التكنولوجيا، روايات بوح عجيبة، روايات قوميّة، روايات محليّة، وأخرى ريفية، روايات بوليسية، وأخرى عن مصّاصي الدماء، روايات مسلّية، لطيفة، وأخرى حانقة تتميز من الغيظ، روايات بدينة، ثرثارة، لا تنتهي، روايات للمطالعة على متن القطار، وأخرى للتذوق على مهل، على أريكتك في البيت أو على سرير في المستشفى.

كان هذا البرج يحوي أيضاً مجموعة مقالات تجيب عن تساؤلات حول المجتمع، وتساعدك على اكتساب راحة نفسية، أو تمنحك، بكلّ بساطة، مفاتيح النجاح في مئة من الصفحات لا غير. كان البرج يحتضن مدونة شعرية كلاسيكية، ودواوين من الشعر الغنائي الشعبي الحديث. ورغم وجود الشعر والمقالات والأغاني، كان البرج يُدعى برج الرواية.

أما البرج الثاني، فكان يجمع بين شتى مجالات العلوم، كالفيزياء وعلوم الحياة والأرض، وحتى العلوم الإنسانية والاجتماعية، إضافة إلى الحقوق، وعلوم الإجرام، وتاريخ التقنية، والتكنولوجيا. ويحتوي هذا البرج أيضاً على سرديات من رحم تلك العلوم تكمّلها أو تجيب عنها. وهكذا نجد هنا كلّاً من الخيال العلمي، والأدب الأحيائي، والأدب الطوباوي. وهكذا من المنطقي أن يُدعى البرج الثاني برجَ العلوم والإنسانيات.

على خلاف البرجين السابقين، لم يكن البرج الثالث مخصصاً للخزن والمحافظة على المصنفات، التي تنتمي إلى شتى أنواع المعرفة. كان يشتمل على أجناس متنوعة لا يجمع بينها سوى انتمائها إلى مجالات الآداب بصفة عامة. كانت غالباً كتباً ثانوية لم يبدُ عليها أنّها قد كُتِبت، وإنما شُكّلت بطريقة يدوية: كتب نافقة، مقالات غامضة، كتالوجات قديمة، كتب مجنونة، مبتورة لا يقرؤها عاقل، عرضة لكلّ الأمراض المستعصية. كانت مجموعة من المنشورات الغامضة، والغريبة، والمثيرة للجدل. هذا برج المخطوطات التي لا تقبل التصنيف.

كان البرج الرابع يحظى بحماية مشددة؛ إذ كان يخفي في طيّاته الوثائق النادرة والنفيسة مثل: الأناجيل، والمطبوعات، ومجموعة من رقّ الكتابة، وكل الطبعات العالية الجودة، والوثائق التاريخية القيّمة. ويمكننا الاطلاع، في صلب هذا البرج الرابع، على مكتبات للمؤلّفين كانت المكتبة الكبرى قد قامت باقتنائها أو تسلّمتها في شكل هبات. وكان هذا البرج يحظى بقياس دقيق ومحيّن للحرارة والرطوبة، فقد كان تعرّض تلك الوثائق النفيسة إلى إحدى أنواع البكتيريا أشدّ فتكاً من تعرّضها إلى حريق. وكان هذا البرج يُدعَى بصفة رسمية: برج التراث، لكنّ الموظّفين في معرض حديثهم عنه كانوا يدعونه بكلّ بساطة: المخزن.

لم يكن توزيع المجموعات يخضع لمعيار خزنها بحسب نوعها فحسب، وإنما كان يتناسب مع حركة الطلب على الكتب.

فكتب برج الرواية شكّلت الكتب الأكثر طلباً بمعدّل 1000 أو 1500 طلب كلّ يوم. كان طيف قرّائها يتألّف من طلّاب الجامعات، والمدرّسين، والعاطلين عن العمل، والمتقاعدين، وطلّاب المدارس، الذين يتوافدون للسؤال عن كتاب أو مجموعة من الكتب قد تجيب عن

أسئلتهم، وتروي تعطّشهم إلى المعرفة، أو تذيقهم لذّة المطالعة. إنهم قرّاء الرواية؛ أولئك الذين لا تتجاوز قراءتهم الحدود الصارمة للرواية. كانوا يُبدون أحياناً بعض الاهتمام بالطبعات النادرة، أو الروايات التي ذيّلها مؤلّفون مشهورون بهوامش أو إهداءات جميلة. لكن كلّ هذا الاهتمام بجمال الكتب لم يجعلهم يحيدون عن موضع اهتمامهم الرئيسي: السرد، والشخصيات، والحكاية التي تسرح بهم بعيداً في عالم الخيال، فتسرّهم، أو تحيّرهم، وترفّه عنهم، أو تثير تساؤلهم، وتعلّمهم، وتريحهم، وتطمئنهم، أو تثير قلقهم. حسب رأيهم، الرواية وحدها تستحق أن نخصّص لها جزءاً من وقتنا، والرواية وحدها من تستحق القراءة. لا يهتم قرّاء الرواية بأحد أجناسها فحسب، بل لا يهتمّون سوى ببعض العناوين ضمن ذلك النوع. أفضل الروايات، حسب رأيهم، هي الروايات الأكثر قراءة.

يمارس هؤلاء القرّاء قراءة موسّعة؛ إنهم يقرؤون كثيراً، لكنهم لا يطالعون الأثر الأدبي أكثر من مرّة واحدة. لا يعيد قراء البرج الرابع قراءة أيّ كتاب سوى في ظروف استثنائية كرحيل الروائي، أو ذكرى وفاته.

حسب آخر الأخبار، يغادر ما بين مئتين وثلاثمئة كتاب رفوف برج العلوم والإنسانيات نحو جمهور من الباحثين، والطلّاب، والهواة المتنوّرين، فتصبح حقلاً للأبحاث، وتُقرأ بتأنٍّ حتى يضطرّ قارئها أحياناً إلى العودة عدّة صفحات إلى الوراء، أو قراءة الفصل نفسه، أو الصفحة نفسها، أو حتى الفقرة نفسها عدة مرّات، لكي يدرك أحد المفاهيم، أو يوضّح إحدى الأفكار. وقد يقرأ العنوان ثلاث أو أربع مرّات. فعلى خلاف برج الرواية، كان القرّاء هنا ينخرطون في قراءة مكثّفة.

سيكون اليوم، الذي يتجاوز فيه الطلب على الكتب من برج الكتب غير القابلة للتصنيف سقف المئة كتاب، يوماً مشهوداً بحقّ. كان قرّاء هذا البرج متنوّعين جداً مثل محتواه من الكتب تماماً، فمنهم، على سبيل الذكر لا الحصر، بعض الباحثين الذين يشتغلون في مجالات محدودة، والخواص الذين يبغون العثور على مخطوط لأحد أسلافهم، وهواة الشعر التجريبي، وطيف كبير من الفضوليين، والانطوائيين، والمخبولين، وغريبي الأطوار.

وكانت أساليب القراءة شديدة الاختلاف حتى كان من الصعب اختيار أسلوب واحد مشترك؛ فقد كان القراء الجدّيون يجالسون أولئك الذين لا يفعلون شيئاً سوى تصفّح الكتب، وكان بعض القرّاء يتوافدون لاكتشاف نصوص لا توجد في أيّ مكان آخر، وآخرون بدا عليهم أنهم طلبوا كتاباً كيف اتّفق بمجرد كتابة أول كلمة جالت في ذهنهم على شاشة الكتالوج، واختيار أول عنوان ظهر لهم، قبل أن يجلسوا، ويضعوا الكتاب على الطاولة، وينتابهم النعاس منذ الفقرة الأولى.

كانت كتب برج التراث الأقلّ طلباً بسبب شروط النفاذ المجحفة. كان على المرء التقدّم بمطلب مسبق إلى المدير يذكر فيه دوافعه، ويرفق به سيرة ذاتية، والجامعة التي ينتمي إليها، وقائمة بمنشوراته وأبحاثه. وفي حال القبول، يتم الاطلاع على الكتاب في قاعة مخصصة تحت أنظار أحد الموظفين ليتحقق من حسن احترام القواعد: كتابة الهوامش بقلم رمادي، يمنع منعاً باتاً استعمال قلم حبر أو قلم خطاط، مدة القراءة محدودة.

يجب على قراء الأبراج الثلاثة الباقية ألا يتوهّموا كثيراً، فبرج التراث ليس مخصّصاً لهم بكلّ بساطة؛ فلم يكن يرتاده سوى العلماء

والباحثين الذين يحق لهم الاطلاع على كنوز التراث. لا يفد أحدٌ إلى برج التراث ليقرأ، وإنما من أجل تطوير بحوثه، أو ارتكاب سرقة ما، حسب ما أكّدته التجربة.

تمام التاسعة صباحاً. أهبط السلالم المعدنية، أمرّ عبر البوابة الدوّارة، وأقف في صفّ الانتظار؛ حيث ألمح أشخاصاً في حلل سوداء ورمادية وزرقاء، يحتسون مشروباتهم، ويتمّون مكالماتهم، وينتزعون سمّاعاتهم. أتقدم إلى نقطة مراقبة؛ حيث ألتزم بأوامر رجل الأمن بفتح حقيبتي. بينما يقلّب محتوياتها، أسير عبر بوابة كشف المعادن؛ حيث يشير إلي رجل أمن آخر بإيماءة من رأسه أن أستردّ أغراضي. أدركت أنني اجتزت كلّ الاختبارات، وتمّ قبولي داخل المكتبة.

الحرارة مرتفعة داخل الردهة، فأفتح أزرار سترتي. أمامي مباشرة لافتة ضوئية تشير إلى اتجاه قاعة القراءة. أتبعها. الرواق مكسوٌّ بسجاد سميك، وتطوقه نوافذ زجاجية كبيرة تُفتح على حديقة مستطيلة الشكل. ألج قاعة القراءة عبر بوابة زجاجية آلية.

صمت تام.

مثل صمت المعابد، يبعث فينا خوفاً ورهبة. ترى ما هي عاقبة الذي يتجرّأ على خرقه؟ أفضّل ألا أفكّر في الأمر. لم نكن داخل كنيسة رغم وجود قاعة المطالعة في مبنى يشبه الدير. كنا داخل قاعة مخصصة للقراءة العمومية؛ فالصمت الذي ران هنا كان قد صُمّم خصيصاً من أجل القراءة.

قديماً، كانت قاعة القراءة صاخبة؛ فقد كان الناس يقرؤون جهراً بصوت مرتفع. كانت النصوص تُقرأ، وتؤدَّى، وكان القراء يتنافسون

للحصول على جمهور من المستمعين. كنا نرتاد المكتبة لنقرأ، ولننصت إلى قراءة الآخرين، لكن أساساً من أجل تزجية الوقت. كنا ندرك أنّ في وسعنا لقاء الأصدقاء، أو إنشاء علاقات جديدة. كانت المكتبة فضاء للحياة. بينما كان القرّاء يطالعون، كان الآخرون يثرثرون، ويتبادلون اللوم والعتاب، ويشتبكون لو اقتضى الأمر. كان الناسك المسؤول عن القاعة متسامحاً إلى أقصى الحدود، فلم يكن ثمّة نظام داخلي يعتمد عليه لو رام التدخل. في ذلك العهد، كان القراء والكتب على حد سواء يتعايشون مع الصخب والفوضى، حتى أتى يوم أرعد به صوت هائل:

هدوء.
من الذي يتكلّم؟
إنه الكتاب.
ينفّس عن غضبه.
أنا الكتاب
الكتاب الذي تقرؤون
مهمتي إثراء زادكم
قراءتي تتطلّب الصمت
رجاء اقرؤوا في سرّكم
لا صخب هنا
هنا يصمت الجميع
منذ الآن نقرأ في صمت
اخرسوا
أطيعوني

ما إن ردّدتْ جدران القاعة صدى الكتاب حتى ران الصمت. حلّ الصمت بغتة، وارتجفت منه الجدران. شخصياً، لم أصدق أنّ الجدران

ارتعدت فعلاً، وإنما بدا لي أنّ الناسك أصابه الرعب من الأمر؛ فالكتاب كان سيّده، وصوت سيده الذي في السماوات؛ ذلك الذي يتربّع على عرش الإنسان والآلهة.

غاص القراء في القاعة داخل نصوصهم خوفاً من العقاب. منذ ذلك اليوم صار الناسك يراقب سلوك القراء الذين التزموا بهذه القواعد الصارمة:

العيون مثبتة على النص والألسنة ملجمة.

تثبّت اليد اليسرى الكتاب بينما تقلّب اليمنى الصفحات.

تتم المطالعة في هدوء، أو بصوت خفيض في أقصى الحالات.

إمكانية تمتمة النص لحفظه جيداً

الحديث ممنوع، والمطالعة إجبارية.

اقتداءً بالكتاب، طالبت المطبوعات الأخرى المعاملة بالمثل، وحصلت على مبتغاها دون عناء. لا أحد تجرّأ على مخالفة إرادة الكتاب؛ فغضبه لن ينسى.

صارت القراءة الصامتة قاعدة، والتزم جميع رواد المكتبات بالصمت والهدوء. وحين انتقلت المكتبة إلى مقرها الجديد، لم تَحمل كتبها ومجاميعها فحسب، بل حملت معها هدوءها.

وُضعت الكتب في مخازنها الجديدة، وتم وضع ذلك الهدوء العتيق ذي الجودة العالية داخل قاعة المطالعة الجديدة. صار الصمت جزءاً من الكنز.

منذ ذلك الحين، تم منع الحديث ورنين الهواتف. لا تسمح قاعة المطالعة الجديدة سوى بحفيف قلب الصفحات، أو بصوت معدّات الحاسوب، أو بصوت نقّالات الكتب، ولم يكن هناك بدّ من سماع صوت المكيّف، ونقرات الحواسيب أيضاً. بخلاف ذلك، كانت هنا قاعدة بسيطة تتألف من لفظين يفهمهما الجميع: هدوء، مكتبة.

لم يكن مكتب الاستقبال؛ ذلك الفضاءُ المريح ذو الأبعاد المرنة والمضيافة من الزجاج والألومنيوم اللامع، يمثّل أوّلَ مكان للقاء القارئ فحسب، بل كان يعكس كل قيم المكتبة. كان مصمماً على شكل يمكّن الموظفين من تأدية أعمالهم اليومية واستقبال القرّاء استقبالاً حسناً في آن.

فوق المكتب حاسوب تجلس إلى شاشته سيدة تجري أناملها فوق لوح المفاتيح، يكسوها اللون الأحمر من رأسها حتى أخمص قدميها. وإلى جانبها عربة تكدّست فيها كتب جديدة. قبالتها، انتصبت لافتة كُتب عليها: استعلامات وتسجيل. اتجهتُ صوبها وقلت:

- عمت صباحاً. أود التسجيل.

بدا لي أنني أعرف هذه السيدة. لا أعلم أين التقيتها، لكنها كانت تعني لي شيئاً. أخبرتها بما يجول في ذهني.

- أظن أنك اطلعتَ على النص بشأن المكتبة الكبرى. ألم ترني هناك؟ أنتمي إلى الشخصيات الثانوية، وأحمل اسم أمينة المكتبة المحايدة؛ ذلك الشخص المتخفّي والطيّع، تلك المرأة التي تقوم بالأعمال نفسها يومياً، وتكرر الحركات نفسها: تدفع عربة بين الممرّات، وترشد القرّاء، وترتّب الكتب والمجلّات، وتكتب التقارير.

وأثناء راحتها الصباحية، تحتسي شاياً، وتتناول حساء على الغداء، وفي تمام الرابعة تشرب شاياً آخر مع بعض الحلويات. آخر النهار، تستقلّ الباص باتجاه شقتها الضيقة؛ حيث تلتقي كتابها البالي الوفي، وقطها المسن كوكو. هل تجد الأمر مضحكاً؟ أنا، لا. تمّ تصويري في ذلك النص على أنني سيدة منظمة وجدية، لكن حزينة، وسيئة الهندام، ذات قوام جافّ وهزيل.

أطلقت ضحكةً مقتضبة، تلاها صمت، وانزعاج، وزفير. إحراج كبير. سعلت. صمتت، ثم تنفست بعمق.

- من حسن حظّي، هذه الشخصية البائسة التي وصفتها لك لا تمتّ إليّ بصلة. أولاً لست أمينة المكتبة المحايدة. إنها أسطورة لم توجد أبداً. ادعني أمينة المكتبة الحمراء.

ولجت قاعة عالية السقف يعمّها النور من خلال زجاج نوافذها الضخمة، وتتدلى من سقفها مصابيح يتم التحكم في كثافة ضوئها، فلا يستشعر القارئ، الذي يرفع رأسه بعد ساعات من القراءة، أيّ فرق في الإنارة، ولا يلاحظ حلول الظلام خارجاً. كانت تلك رغبة المعماري: خلق جوٍّ خاصّ وفضاء لا يعبر منه الزمن، وإنما يحبسه كأنّ قاعة القراءة لا تشهد ماضياً ولا مستقبلاً، وتعيش في حاضر سرمدي.

يشير دليل القارئ أيضاً إلى أن القراء لا يحصلون على مكاتب، وإنما على فضاء مخصص للعمل، فلفظ مكتب يشير إلى قطعة أثاث مليئة كتباً، وأوراقاً، ودفاتر، وملفّات، وأكواماً من الوثائق المتناثرة لا يفهم نظامها غير شخص وحيد: مالك المكتب. يرتبط المكتب دوماً بملكية شخصية. إنه مكتبي، وهناك أفكر وأشتغل.

الفضاءات المخصصة للقراءة متطابقة، ومريحة، ومرنة، وتستجيب لاحتياجات القارئ الحديث، وهي واسعة بما فيه الكفاية ليضع فوقها أغراضه وأكواماً من الكتب والوثائق المختلفة، وهي مجهّزة بفوانيس تطبع دائرة ضوء يسمح قطرها بقراءة مريحة. وعلى خلاف المكتب، إن الفضاء المخصص للقراءة لا ينتمي إلى أحد، وتتغيّر ملكيته كل يوم، فينتمي إلى أول شخص يحتلّه.

تلبية لحاجة القرّاء، ستفتح قاعة القراءة اليوم كاملاً، والأسبوع كاملاً على مدار السنة. حين قرأت هذا الإعلان رحتُ أحلم بمغادرة شقتي الباهظة والضيّقة لأستقر هنا نهائياً. سأغادر عملي، وأهجر عائلتي لأعيش داخل المكتبة، لا يرافقني سوى القرّاء والكتب. مجموعة صغيرة سوف تحتلّ القاعة، وتنظم حياتها بها؛ سنرسي فيها خدمات توصيل الوجبات، وسنشيّد كابينات اغتسال قرب دورات المياه، ونستقدم طبيباً إلى قاعة الاجتماعات القديمة. سيخوّلك انخراطك في المكتبة الانتفاعَ بكل الخدمات مجاناً، عدا ثمن الوجبات التي سيتحمّل القارئ تكلفتها.

أفقت من تهويمتي، وسمعت جلبة من حولي. التفتُّ ورأيت عشرات من القراء يدخلون القاعة ركضاً، ويرتمون على الفضاءات المخصصة للقراءة مثلما ينقضّ العدّاء على خطّ الوصول. رياضة ممتعة. لم أكن أعرف مسابقة الركض وسط المكتبة.

عليّ الإسراع قليلاً.

جلت القاعة ببصري بسرعة فائقة، واجتزت درباً كاملاً، ورحت أقفز بين الصفوف لعلّي أجد مكاناً أدعوه مكاني. تجاوزت صفّاً، ثمّ

صفّين، ثمّ مجموعة كاملة أبحث عن مكان شاغر، عن جزيرة أستقرّ فيها، أو كهف أحتمي به. أَأنا أحلم أم أن مكاناً شاغراً أمامي مباشرة؟ لا. ليس حلماً. إنه مكان شاغر جميل قرب النافذة. سيكون لي. اقتربت منه. لم يتبقَّ سوى متر واحد. سأسمّيه مكاني. مكاني الجميل. فضائي الخاص بي.

أتى أحدهم فجأةً دون أن أنتبه إليه، ووضع محفظته هناك. حين انتبهت إليه، فات الأوان. لقد غلبني. صار مكانه الآن. لم أحتج سوى بضعة أعشار من الثانية لأفوز به. هذا هو قانون مسابقة الركض السريع وسط المكتبة. لم تكن انطلاقتي جيدة، ولا ألوم سوى نفسي. سأعود مرة أخرى وسأفوز.

حملت خيبتي، ورحت أبحث عن مكان جميل ومضيء. اجتزت الدروب الواسعة، التي تسمح بمرور الجميع بيسر، والسجّاد الأزرق الكبير الذي يلطّف من ضجيج الخُطا، ويجعل القارئ المحمّل كتباً يفقد شيئاً من وزنه كأنه ينزلق فوق السجاد. ولو حدث وسقطت الكتب من بين يديه فإنّ الثقوب المتقنة التوزيع بين أرجاء السقف ستقوم بإخفاء كلّ الجلبة.

لمحت غابة في طرف قاعة القراءة، وميّزت فيها أشجار الصنوبر والبتولا والبلسان والحور والبلّوط. أوقف لوحٌ زجاجي كبير مسيرتي، وعبره رأيت شجيرات من السرخس والورد الجبلي، وأدركت أنني صرت في طرف قاعة القراءة. انتهيت إلى حدودها؛ حيث يشكّل هذا البستان قلب المبنى برمّته.

لقد غرسوا غابة وسط المكتبة. فكرة عجيبة. لو كان القرار في يدي لأنشأت مكتبة وسط غابة. بعد أن نجتاز جدولاً، ندخل غابة من أشجار الصنوبر، ونسير وسط درب رملي يقودنا بعد مسيرة نصف الساعة إلى فرجة بين الأشجار، فنجد قرّاء متّكئين على الحشائش يقرؤون كتباً طازجة تتساقط عليهم من قمم الأشجار.

شيئاً فشيئاً تحتلّ أنواع مختلفة من الحيوانات هذه الغابة المصغّرة، وأبرزها الأرانب والصقور التي تجد المكان جميلاً. لكنك لن تجد قراء تضع أقدامها على العشب أو تتسلّق الأشجار لتتذوق من ثمارها. ستكون الأبواب موصدة، وسيمنع على الآدميين اجتيازها.

رابضاً على غصن شجرة، فتح أحد الكواسر منقاره وراح ينشد، لكنّ نشيده ظل صامتاً بسبب الزجاج المقوّى الذي يعزله عنّي. الحيوانات مجرّد زخرف في عيون القرّاء، ووجود القراء لا معنى له بالنسبة إلى الحيوانات. لم يبالِ الصقر، وواصل نشيده. قرأت حركة منقاره مثلما نقرأ الشفاه، فأدركت هذه الكلمات:

عصيّ على ذهني

إنشاء مكتبة في غابتي

توغّلت بعيداً، وشققت لنفسي ممراً بين الرفوف، لأكتشف جزراً، وأنفاقاً، وكهوفاً. اجتزت منطقة الحوليّات، وسافرت بين أكوام الدلائل والفهارس. وفي منطقة الموسوعات المتخصّصة لمحت فرجة بين كتب الأديان والعلوم الاجتماعية، فاندسست في طريق يفضي إلى مساحة مفتوحة يغمرها النور.

كان ثمة فضاء مخصص للعمل بمقعدين شاغرين. وضعت محفظتي على أحدهما، خلعت سترتي لاهثاً. لقد عثرت على مكان جيّد، وهادئ، ومنير كما رجوت دوماً. جذبت المقعد، واتخذت مجلساً.

وقفت قبالتي قارئة تخفي رأسها أسفل قبعة سوداء، وتلتحف معطفاً طويلاً. تطلّعت إليّ بعينيها الرماديتين، وكلّمتني بصوتها الرصين. دخلتْ مباشرة في صلب الموضوع، فلم يكن لديها وقت لتبدّده: طلبت مني أن أمنحها مكاني. في الواقع، كانت تحتجّ على احتلالي ذلك المكان، وتعلّلت بجلوسها هناك كلّ يوم. لا أفهم تذمّرها. لا تُحجَز المقاعد عادةً، وهي تنتمي إلى من يجلس عليها أوّلاً. اعترفت أنها لا تملك ذلك المقعد، لكنه يختزل عاداتها: لا أعمل جيداً سوى حين جلوسي هنا. إنه يبعث على الاطمئنان. لكن بالنسبة إليك، هنا أو هناك (وأشارت إلى مقعد شاغر) الأمران سيّان. تحلّ باللطف، وامنحني مكانك.

اتفقت معها حول أمر ما. كنت أشغل مكاناً جيداً أُحسَد عليه. لم يمرّ على جلوسي هنا بضع ثوان حتى بدأت أشعر براحة كبيرة.

لا تلحّي. لن أستسلم.

جلست القارئة على المقعد المقابل أمامي دون أن تنبس ببنت شفة. خلعت معطفها الأسود الطويل، وعلّقته على ظهر المقعد، لكنّه انزلق وسقط أرضاً. تناولَته لتعيده إلى وضعه، لكنّه سقط ثانية. أعادت الكرّة بحذر شديد. يبدو أنها نجحت في المهمّة. تكلّمت بإيقاع سريع، فسقط المعطف مجدّداً. لاحظت أنّ القارئة الرشيقة تملك أصابع قصيرة تجعل بعض مهمّاتها شاقة وعسيرة، كتعليق معطف على ظهر المقعد. لا أدري كيف تستطيع الإمساك بكتاب.

نجحت، رغم إعاقتها، في محاولتها الرابعة. نزعت القارئة الشابة قبّعتها وأفرغت حقيبتها من محتوياتها؛ لم تكن تحوي دفاتر أو أقلاماً، بل تحوي حاسوباً محمولاً وضعته على الطاولة وشغّلته.

في انتظار تشغيله، جالت قاعة المطالعة ببصرها، وألقت نظرة عابرة إلى شاشته، ثمّ تمطّت وتثاءبت. حين صار الحاسوب في وضع استخدام، وضعت سمّاعاتها، حنت كتفيها، وانبرت تنقر لوح المفاتيح. كانت أناملها القصيرة بارعة جداً، وقد صارت بغتة قوية وجيدة الأداء. لقد زالت الإعاقة عن الأصابع العشرة تماماً، وهذا ما لم أفهمه. لقد خُلِقت أناملها للحاسوب. ربما كانت طويلة ورقيقة، لكنها تكيّفت بمرور الزمن مع حاجاتها الجديدة.

كان ثمّة كتاب على الطاولة لم ألحظ وجوده حين جلست. أمر عجيب. أَكان هنا عند قدومي، أم أن أحدهم قد وضعه هنا في هذه الأثناء؟ نظرت من حولي، ثم وضعت راحتي على غلافه. ما زال دافئاً، ما يعني أن أحدهم أتمّ قراءته للتوّ. ربّما تخلّص منه هنا أو نسيه تماماً. ربّما لم يعد مهمّاً فجأة. كان عليه إعادته إلى المكتبة الحمراء، أو وضعه في عربة الكتب المستعادة لتتمّ إعارته مجدّداً. ربما أعوزه الوقت، أو شعر بالخطر، فتوقّف عن القراءة فوراً، ولاذ بالفرار تاركاً الكتاب على سطح المكتب.

التفتُّ من حولي موقناً بوجود هذا القارئ هنا. لا أحد هنا. سألت القارئة ذات الأنامل القصيرة ما إذا كان الكتاب لها. لم تسمعني بسبب السماعات في أذنيها. لوّحت بيدي. لم ترني. لوّحت بإشارات كأنني أطلب النجدة. لا تراني ولا تسمعني. نهضت أخيراً، طفت

بالطاولة، ووضعت يدي على كتفها. أجفلت كأنني كنت أعنّفها. نزعت السماعات، وسألتني منزعجة:

- ماذا تريد منّي؟

أشرت إلى الكتاب، وسألتها:

- أهو لك؟

أجابتني بحدّة:

- لا، مؤكَّد لا.

أعادت وضع سمّاعتيها، وزفرت. عادت إلى حاسوبها. نظرتُ من حولي مجدّداً. لا أحد، فتناولتُ الكتاب بين يديّ.

نوع الوثيقة: دراسة. نصّ مطبوع.

العنوان: الكتاب الشابّ حانق.

المؤلّف: غير مذكور.

مكان النشر: غير مذكور.

الناشر: غير مذكور.

تاريخ النشر: مجهول.

عدد الصفحات: 51.

الرسومات: لا.

القياسات: 14*18 سم.

اللغة: الفرنسية.

بلد النشر: فرنسا.

فهرسة: لا.

مصادر: لا.

ندوات أو ملتقيات: لا.

الجنس الأدبي: رواية.

مواصفات: طباعة عادية.

حين تهيّأتُ لوضع (الكتاب الشاب حانق) في عربة الكتب المعادة، تناهى إلى سمعي صوت رقيق:

- أيها القارئ.
- من يتحدّث؟

نظرت من حولي. الجميع منغمسون في عملهم. ربّما صرت أهذي. طأطأت رأسي، فألفيت الكتاب مفتوحاً.

- أيعقل أنك لم تعرفني؟ واصل الصوت الرقيق: الأمر واضح رغم ذلك. إنه أنا، الكتاب، من كان يتكلّم. أنا الكتاب الذي تمّ تأليفه خصّيصاً من أجلك. لقد أتيت لتطالعني. لقد قدمت للقائي. سعيد بمعرفتك. طيّب، لقد تعرّفنا. والآن اقرأني.

قلت له بريبة:

- لم أتصوّرك على هذه الشاكلة.
- هل خيّبت آمالك؟ يبدو أنك لن تحتفظ بي. ربّما قلت لنفسك إنك تستحق ما هو أفضل منّي.
- لا أدري. لا يعجبني هذا العنوان: الكتاب الشاب حانق. إنه نشاز.
- ليس عنواناً جميلاً ربما، لكنه عنوان صادق، ويصفني جيّداً. ثمّ، عليك أن تدرك أننا قد نعثر على عنوان سيّئ وبعد قراءته... حذار.

أخشى ما تنوي القيام به. لو وضعتني في العربة، فستتمّ إعادتي إلى المستودع فوراً. وربما يستعيرني شخص آخر. انتبه، ستندم على صنيعك. ثق بي. تذكّر أنني كُتبت من أجلك. كنت في انتظارك. اقرأني إذاً.

خطاب مباشر عجيب. لم أر كتاباً يعبّر عن نفسه بهذه الطريقة. ثمّ، أنا لا أحب من يجبرني.

- حسب رأيك، ما الذي كنت أفعله هنا مُلقىً على هذا المكتب؟ كنت واثقاً أنك سترتاد المكتبة. كنت أعلم بقدومك هذا الصباح. أتتصوّر أنني كنت أعلم حتى مكان جلوسك. الكلّ مكتوب. لا يخفى عنّي شيء؛ لا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل. مثل كل الكتب، لديّ القدرة على السفر عبر الزمن وعلى قراءة أفكار الآخرين. لا تخف. لا تخشَ شيئاً. استرخِ. أكرّر وأعيد: لقد خُلقتُ من أجلك. هيّا، اقرأني.

- أحمّلك مسؤولية كلامك. لم أقل أبداً إنك خُلقتَ من أجلي.

- كفاك تكلّفاً. أنا واثق أننا سنتفاهم. اقرأني.

- كيف تجرؤ على كلامك هذا؟ لقد التقيتك لتوّي. امنحني بعض الوقت.

- أتظن أنك تعلم شيئاً عن حياة الكتب؟ أراهن أنك تتخيل الكتب سعيدة في المكتبة العظمى، وقد تم حفظها في ظروف مثالية، وتراهم يخلّدون بها. أهذا ما تظنّه؟ أنت لا ترى الحقيقة. لا تعرف حجم المخاطر التي تحدق بالكتب، ولا تدري إلى أي مدى فصيلتنا مهدّدة بالانقراض. إن المكتبة غابة كبيرة. لو أردت أن تعلم أكثر بشأنها، فلديّ حلّ بسيط: اقرأني.

- اسمع، لا أدري فعلاً. أنت تلحّ كثيراً. وهذا لا يروقني.

- أتعرف هذه الجملة: «لو جهرت بما في داخلي لأنقذت حياتي، ولو كتمت ما في صدري للقيت حتفي». هذه الجملة تنطبق عليك أيضاً، فاقرأني.

- دعني أفكر في الأمر.

- طيب، أعترف بأنني بالغت قليلاً. لم أكن أعلم أنك ستأتي إلى هنا اليوم. إن الكتب التي تدّعي التنبّؤ بالغيب كذبة كبيرة. بعضها يلقي نظرة ثاقبة على الحاضر في أفضل الحالات. وهذا جيد جداً. كنت أحاول إقناع نفسي بأنك ستفد يوماً، لكنني لم أكن أعلم متى يحلّ رَكبك أو حتى شكلك. عليّ القول إنك وسيم وطيّب، ونظيف الأصابع. يعني أنك قارئ حقيقي في نهاية المطاف. لا يمكنك أن تتصور كم طال بي الأمر. مرّت عدّة أسابيع دون أن ألتقي قارئاً. رعب حقيقي لا أتمناه لأحد، سوى لأحد الكتب مثلي. كان بعضهم يتناولني بين يديه مرّة أو مرّتين في اليوم، ويقلّب صفحاتي. لم يكن الأمر يتعدّى عشر ثوانٍ، ثمّ يتركني. تناهى إلى سمعي ادّعاء الكتب الأكثر مبيعاً أنّ عشر ثوانٍ كافية لشدّ أحد القرّاء. السطور الأولى مفتاح النجاح. على الذروة أن تكون ناجعة، وتتحقّق في ثلاث جمل على أقصى تقدير. هذا مرعب! أنا لم أتعدّ حدود اللمس، أما أن أُقرأ فلا. من المستحيل العثور على قرّاء. وهذا يزيدني سقماً. ما إن يقترب أحدهم من منضدة الكتب الحديثة الصدور؛ حيث وضعني أمناء المكتبة، مدّعين إبراز مفاتني أمام القرّاء، حتى آخذ في النداء: اقرأني، اقرأني. لقد كُتبتُ من أجلك. كنت أحياناً أضيف حجّة مختصرة:

دعني أقدّم نفسي. أدعى ‹الكتاب الفتي الغاضب» أروي قصّة أمينة مكتبة تتقاذفها هواجس مريبة. تمّ هجران الكتب، ولم يعد لها قرّاء. لم

يعد للأمينة أيّ دور أيضاً. تتحدّث عن مشروع سرّي يقضي بتعويض الكتب الورقية بوسائط جديدة. تهديد كبير يجثم على صدورنا نحن الكتب الورقية بقديمها وحديثها: الإقصاء. يقال ان الوسيط لا يغير شيئاً من الكتاب، فالنص هو الأهمّ. لكنني لا أشاطرهم هذا الرأي: مثلما يقول أحد المؤرخين الثقات، إن تبني أحد النصوص يمرّ حتماً عبر وجوده المادّي، وإن أساليب القراءة تتغيّر حسب تنوّع الوسائط. ومن ثَمَّ، وجب التعايش بين مختلف هذه الوسائط، ولا سبيل إلى التنافس بينها. كل الخطر يكمن في محاولة إحداها تعويض الأخرى. أنا أساند تعدّد القرّاء، وتنوّع الثقافات المكتوبة. لم أعد أذكر من قال إن التنوع الثقافي لا يقلّ أهمية عن التنوّع البيولوجي، ولو تمّ تقويضه، فإننا لن نقدر على إعادة خلقه. أتّفق تماماً مع هذه الجملة. لو أعارني من يستمع إليّ انتباهاً، فربما أضيف: كل ما أقوله يبدو نظرياً، لكن مطالعتي ممتعة جداً. اقرأني.

واأسفاه، لم تجد حججي نفعاً. لقد تمّ تجاهلي. كأنني لم أكن موجوداً. لم أكن الوحيد في هذا الموقف. كنا بضع عشرات من الكتب اليافعة نتنافس على إغراء القرّاء. نجح بعضهم، وفشل البعض الآخر مثلي. والبارحة، لأوّل مرّة منذ وجودي في مجموعات المكتبة الكبرى، تناولني أحدهم بكلّ حزم. شيءٌ ما في لمستِه ونظرتِه إلي جعلني أعتقد أنه يبدي نحوي اهتماماً. لم يكتفِ بتقليب صفحاتي، وصار يقرؤني فعلاً. كانت نظرته حادّة، وأنامله رقيقة وماهرة. كم استمتعت. لقد صحبني بدل أن يريحني على المنضدة. وهنا، قلت لنفسي: سيقرؤك. أمامك أوّل قرّائك. انتشلني من حلمي حين جلس إلى مكتبه؛ حيث وُضعت كومة من الكتب الضخمة، والموسوعات، والمعاجم. وضعني

القارئ على طاولته، ليس أعلى الكومة، وإنما بجانبها، في طرف الطاولة القصيّ. ثمّ ابتلعته الكتب الأخرى. لقد سمعتها تقهقه: أنت هناك، أيها الكتاب الفتي الغاضب آسفون، لقد جئنا قبلك إلى هنا. هذا القارئ لنا، ها، ها، نرجو لك كلّ التوفيق. بعد ذلك، لم يولني القارئ أيّ انتباه. أظنّ أنه نسيني تماماً؛ لأنه لم يتجشّم عناء إعادتي إلى منضدة الكتب حديثة الصدور حين انصرافه، وذلك أضعف الإيمان. كان يسبح في لجة أفكاره، فأخذ الكومة التي كان يدرسها، ووضع الكتب عند مكتب الاستقبال، موضحاً نيته العودة إليها في الغد، وتركني لحالي فوق الطاولة. لقد هجرني تماماً. أمضيت الليل داخل قاعة القراءة. عادة، تغلق المكتبة أمام العموم ليلاً، لكنني أجفلت حين أخذني أحدهم بين يديه، وراح يطّلع على محتواي. كانت رائحة التبغ تتضوع من أصابعه، ونظرته حادة قوية، وكان يقرأ جيداً وسريعاً: كنت أمام قارئ كبير على ما يبدو. قبل أن يتنفّس الصبح، تركني ولاذ بالفرار، كأنّه كان يخشى أمراً ما. لقد تركني فوق المكتب، حيث أنت الآن.

فجأة، سقط الكتاب اليافع الحانق من يدي. حين أخذته أول مرة، كان دافئ الملمس، ثمّ ارتفعت حرارته، وصار حارقاً، فتركته ليسقط.

لمست غلافه كمن يلمس جبين أحد المرضى. سألته عن حاله. فقال:

- أنا بخير. قلق أكثر بشأنك. اسمح لي أن أقول لك إنك لا تقرأ جيّداً. عليك تغيير أسلوبك. خذ مسافة مني. انظر، أنت قريب جداً، حتى إن أنفك يغوص في النص. هذا مضحك. لستُ من يقرأ هكذا. هذا مثير للاشمئزاز. غيّر طريقتك. ابتعد قليلاً. انتبه إلى السياق، راقب المشهد، ارتح لخمس دقائق، استرخ. اقرأ عن بعد. سيكون الأمر أفضل كثيراً.

- أواثق أنك على ما يرام؟

قال الكتاب اليافع الحانق دون اقتناع:

- بحالة جيدة تقريباً. سأكون أفضل لو أعدت قراءتي مجدّداً. لقد مللت الحديث. يكفي! الآن، اقرأني.

- تحاول إقناعي دون جدوى بأنّك بخير، لكنّ صوتك الضعيف يوحي بالعكس تماماً. لا يفاجِئني أنك تعاني من الحمّى.

لم يكن جديراً بي الحديث عن الحمّى والمرض؛ لأنني صرت الآن أشعر أنني لست على ما يرام. لمست جبيني. إنّه يغلي. أشعر بارتفاع الحرارة، وتملّكني الدوار. هل أصابني الكتاب بالعدوى؟ أغلقته. صه. يحتاج إلى بعض الراحة. أخرجت محتويات حقيبتي، وشغّلت حاسوبي لأحافظ على نشاطي.

بيب بيب، لقد وردت إليك بعض الرسائل، اقتراحات كتب تطابق خياراتك. اذهب إلى حسابك الشخصي، واضغط زرّ: اقرأ.

الفتاة اللطيفة جدّاً. كنت الرفيقة الأكثر طيبة ومرحاً في العمل. عندما كنت طالبة في المعهد، لم يكن يأخذني أحد على محمل الجدّ، حتى وردني يوماً ردّ من «توم»، مغنّي فرقة «اتجاه واحد[1]»، على رسالة وجّهتها إليه سابقاً. كان يطلب لقائي. ظننت أنني أحقّق حلمي بمجرّد امتهاني القيافة في مجموعة موسيقية عالمية. لكن توم، الذي كان قدوتي، لم يكن سوى شاب مشاكس لم يتوانَ عن تعذيبي. صرت دميته، وتعرّضت إلى التحرّش قبل أن ينشأ الحبّ. اقرأني.

1 مجموعة موسيقية من فرنسا Sens Unique.

مغامرة لا مثيل لها. أنهكني العمل، فتركته، وقمت بجولة حول العالم. وخضت مغامرات عجيبة. لقد تمّت كتابتي بطريقة تصويرية، فصرت رائعاً، وحيّاً، وممتعاً، وزاخراً بالأحداث المثيرة. إذا كنت من أحباء المغامرات، فلن يخيب ظنك. ما إن تبدأ في قراءتي حتى يصعب التخلّي عني. ستجد حينها متعة لا تضاهيها سوى متعة أفلامك ومسلسلاتك المفضلة. إذا كنت تريد قضاء وقت ممتع دون عناء، فإنك تعرف ما يجب عليك فعله: اقرأني.

شوق إلى الحبّ: لم تكن لي علاقات منذ أمد بعيد. في الماضي، عشت تجارب لم تنتهِ على أحسن ما يرام. واليوم، مستعدّ للقاء شخص آخر. سأروي لك حياتي عبر حروف حقة. لا أبالي بالسن والمسافة واللون. أنا شخص اجتماعي، ولطيف، وحسّاس، وكريم. لا أدري ما الذي سيحدث بيننا، لكنني أريد أن نصبح أصدقاء. اقرأني.

قصيدة كئيبة: مدح العديد من النقاد المشاهير أصالتي وحس الخلق عندي. لكن، بصراحة، لا أملك غير عدد يسير من القراء. هذا ليس عدلاً؛ لأنني ثمرة عشر سنوات من العمل. أظنك سمعت أنني صعب نوعاً ما. هذا ليس صواباً. أنا يسير الفهم. طيب، ربما كنت من نوع خاص، لكن في عالم تحكمه النواميس، هذه إحدى خصالي، أليس كذلك؟ اقرأني.

علاقة ملتهبة: إنها قصة فتاة خجولة متيمة بالكتب انتسبت إلى أحد نوادي الكتابة الإبداعية. وقد لاحظ أستاذ الأدب نبوغها مبكراً. بعد حصّة الدرس، كان هذا الأخير يستبقيها، ويقترح عليها دروساً خاصة جداً... حين تقرؤني، ستُحلّ مشكلة انتصابك نهائياً. أنا شبقة جداً. تعالَ بسرعة. اقرأني.

تقييم صناعة الكتاب: ينتمي جون إلى صفوة الباحثين دولياً. هذا ما يعتقده على الأقل. حين تم اعتماد مقاييس جديدة للإنجازات العلمية، أدرك أنه مُنح درجة متوسطة جداً، فنصوصه لا تُقرأ كثيراً، وليس لها أي تأثير. أراد استعادة مكانته، فقرر الولوج إلى عالم الجريمة، ونشر كل ما اقترفت يداه. هكذا، سيصبح أحد المؤلفين الأكثر مقروئية قبل أن يتم إيقافه والزج به في السجن. اقرأني.

صدر حديثاً: أظنك مثل العديد من القراء قد أُعجبت بالأجزاء السابقة لمغامرات روميو الباحث عن أبيه. يسرني إعلان صدور الجزء الخامس من ملحمتي. سافر روميو إلى بلدان عجيبة في رحلة بحثه؛ حيث التقى كائنات ذات قدرات خارقة. أنا رواية مميزة يتحدث عني الجميع. أنا التي يجب عليك قراءتها. لا تتخلّف عن الركب. ليس لديك خيار. اقرأني.

المكتبة الوحش: يودّ هيبوليت، ذو السبع سنوات، مساعدة أبيه على تأليف كتاب؛ فيروي له قصة وحش مكتبة يفترس الكتب ليلاً. يأكل الوحش كتب الأطفال أولاً، لأنها أشهى برسوماتها الملونة العذبة، ثمّ يمرّ إلى كتب الراشدين من روايات دسمة مغذية. لا حدود لشهية الوحش. كلّما أكلَ أكثر ازداد جوعه ضراوة. زاد وزنه، وصار ضخماً ومروعاً. بعد أن نهب المكتبة المحلّية، افتتح الوحش مكتبته الخاصة: المكتبة الوحش؛ حيث يدفع الناس رسوم الدخول، وتُقرَأ الكتب بصوت مرتفع. هناك يتم الدفع بالقطعة، وثمة إمكانية اشتراك سنوي، وتوجد مئات الألوف من الكتب المتاحة حسب الطلب. أمّا أنا فكتاب لليافعين والراشدين على حد سواء. اقرأني.

المجهول المشهور: ألا تجيب عن الرسائل التي أرسلها إليك؟ في البداية، كان الأمر مجرد رهان؛ إذ كان عليها كتابة رسالة إلى شخص مجهول، لكن جان أدركت في ما بعد أنّ مراسلها لم يكن شخصاً عادياً. أتريد أن تعلم هوية مراسل جان الغامض، وكيف ستغير هذه الرسالة البسيطة حياتها؟ اقرأني.

كانت الجزيرة شبه مقفرة: أنا قصة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأحداث والحياة. بعد عمله في مؤسسة كبيرة، استقال الراوي من شغله، وعاد إلى الجزيرة؛ حيث ولد. في القصة، نلتقي طيفاً من الشخصيات المشوقة. أرجو أن تتعرف إلى موهبتي على خلاف النقاد المكرسين. اقرأني.

هل من قصيدة أثناء هذا الدرس: دأب أحد مدرسي الجامعة كلّ ثلاثاء على إلقاء محاضرته حول الشعر الحديث. وفي آخر لحظة، طُلب منه تغيير القاعة. في القاعة الجديدة، كان ثمّة أسماء مكتوبة على السبورة، لا بد من أنه تم تناولها أثناء الدرس السابق. قرر الأستاذ الإبقاء عليها مازحاً. حين ولج الطلاب القاعة، أشار إلى السبورة، وقال لهم: هذا قصيد، فاشرحوه. تماثل الطلاب، وأنتجوا مقالات تؤكد أن المدون على السبورة قصيد فعلاً. هل يعني ذلك أن القارئ من يبدع القصيدة؟ لتعلم أكثر حول هذه الطريقة العجيبة، اقرأني.

الكتاب اليافع الغاضب: أحاول ترجمة هذا الإحساس بانعدام الأمان إلى قصة؛ حيث تصيبُ القراءَ علةٌ تَصرِفهم عن الكتب. أحاول العثور على قراء يمكنهم فهمنا ومساندتنا في كفاحنا. أتريد أن تعلم ما الذي يجري داخل هاته المكتبة؟ اقلب الصفحة، واقرأني فوراً.

2

الكتاب الفتي الغاضب

لا يخدعنّك الهدوء الناعم؛ فالخوف يسود المكتبة. ليس بين الموظفين، بطبيعة الحال، الذين كانوا يخشون أن تسوء ظروف عملهم، ولكن بين الكتب التي كانت تخشى مصيرها. أعرب عددٌ كبير منها عن عدم الشعور بالأمان عبر قصص مرعبة يصاب خلالها القراء بعلّة عجيبة تصرفهم عن الكتب. تتساءل الكتب اليافعة دوماً ما إذا سيكون لها قرّاء. ما كان دوماً قلقاً لا مبرر له صار اليوم رعباً معللاً. تخشى الكتب اليافعة إقصاءها بعيداً عن قرائها المحتملين، في الدور الثالث تحت الأرض، أو في أحد المستودعات، وتخاف إعدامها والتخلص منها بعد إخفائها.

حان وقت النضال من أجل الكتب. وليس في وسعنا الاعتماد على الكتب القديمة والكلاسيكية؛ لقد عاشت زمنها، ونالت ما يكفي من التكريم والثناء. ويعلم الجميع أنها ستظل تُقرأ وتُدرس مهما حصل. إنها لا تدرك خوفنا وقلقنا. لكنك، بوصفك قارئاً، تدرك المسألة. ادعم قضيتنا. ساهم في كفاحنا الآن. اقرأني.

حين افتُتِحت المكتبة الكبرى، كان هناك ما يبعث على التفاؤل. كانت الكتبُ سعيدة بوجودها داخل مقرات جديدة. كان الجوّ نقيّاً، والنور مريحاً، والأثاث ناعماً. وكان القراء مسرورين بوجودهم داخل قاعة قراءة أوفر راحة، واتساعاً، وتجهيزاً من القاعة القديمة. وكان القراء والكتب على وشك العيش في تناغم كامل. كانت الكتب تعثر على قراء بيسر، وكان القراء يعثرون على كتب تستجيب لأذواقهم بسهولة، وكان أمناء المكتبة على يقين بأن الكتب والقراء لا يسعهم العيش أحدهما دون وجود الآخر، وأنّ مصيرهم كان مشتركاً. كانت القراءة في ذهن القارئ هي أن يقرأ كتاباً. ومن ثَمَّ، إن تلك الكتب رأت أن القارئ لا غنى له عنها. وبدا أن بقاء الفصيلتين كان مضموناً. أنا كتاب، وأنت قارئ؛ ليحبّ أحدنا الآخر، لنتّحد، لنتكاثر، لنعش في فرح وسلام. بالرغم من ذلك، مرّت بعض الشهور الحالمة، ثم تأزّم الموقف.

في نهاية السنة الفارطة، فقدت المكتبة أحد قرّائها. وليس أقلهم أهمية، فقد كان أكثر العارفين بالكتب، نظراً إلى سنه وتواتر حضوره. كان الأكثر قراءة. وأكثر من اهتمّ بها. كان شديد التركيز، يقرأ ممسكاً قلماً بيديه ليدون بعض الملاحظات، أو واضعاً القلم بين شفتيه، ليعوض الحرمان من التدخين داخل المكتبة.

كان الرجل مؤرّخاً متقاعداً، وكان يكره هذا الوصف. فالتقاعد، حسب رأيه، يجعله غير مرتبط، حراً في مواعيده، فيفعل ما يشاء. وما يريده حقاً هو أن يكون مؤرّخاً متفرغاً، وليس مؤرّخاً متقاعداً.

كان للمؤرّخ خصال لا يملكها سوى القراء الكبار. كان مخلصاً، ومواظباً ومتحجّراً. كان يقول عن نفسه: قارئ كبير، لا أدري ما الذي يعنيه ذلك. لست قارئاً كبيراً أو جيّداً، أنا قارئ حدّ الجنون.

كان يبدو على المؤرّخ أنه أدرك دوماً كيف يقرأ. بطبيعة الحال، لقد تعلم ذلك في الأثناء، لكنّه نسي كيف كان العالم يبدو من قبل. لقد وُلد مع شروعه في القراءة، وكبر معها.

أحياناً، كان المؤرخ يستعيد مشهداً فيه طفل وكتاب وقارئ؛ ذلك الطفل الذي كان يجهل الحروف الأبجدية حفظ الكتاب الذي كان يُقرأ له كلّ ليلة عن ظهر قلب. كان يخلد إلى النعاس برأس تملؤه الصور والجمل.

كان المؤرخ يقارن بين اكتشافه أحد الكتب وبين رحلة إلى مدينة يتكلم أهلها لغة مجهولة؛ حيث تفكُّ رموز الإشارات الإعلانية، وتتذوّق أطباقاً غريبة كلما قرأتَ قائمة طعام، وتتخيل مناظر طبيعية كلما قرأتَ إشارات مرور، وتخلق لنفسك مستقبلاً كلما اطلعتَ على ما تخبّئه أبراجك. أنت لا تقرأ لتسلك الاتجاه الصحيح، ولا لتتنبأ بالغيب، ولا حتى لأجل حميتك الغذائية، فأنت تقرأ لأجل الاستمتاع بالقراءة بلغة مجهولة.

كان المؤرخ شغوفاً بالكتب، وكانت هذه الأخيرة تبادله الشعور. لم تكن كلها ضمن أصدقائه، فبعض الكتب كانت تعارض طريقة قراءته بشدّة، لكن حتى ألدّ أعدائه منها كانت تكنّ احتراماً كبيراً لحياته وآثاره. شخصياً، لم أعرفه إلا لماماً، لكنني أعلم أن الكتب القديمة كانت تشعر بفخر حين تمسك بها يداه المجعّدتان، وتداعبها أنامله الطويلة الرقيقة، وتنفخ عليها أنفاسه المتقدة. كانت الكتب تتضوع رائحة تبغه، ولا تتذمّر أبداً. رائحة التبغ ضريبة مستحقة لكي يواصل قراءتها.

حين يُقال عنه إنه قرأ كلّ شيء، فذلك لم يكن يجانب الحقيقة. كان يكفي أن ترافقه قليلاً لتعلم أنه يعرف جميع الكتب. أعني، يعرفها عن كثب. ما إن تمنحه عنواناً حتى يعطيك اسم المؤلف. امنحه اسم كاتب، فيسرد عليك قائمة كتبه كاملة. بالنسبة إليه، كانت جميع الكتب تنتظر قراءته لها. كان قارئاً عظيماً، وكان فقدانه صادماً ذا عواقب وخيمة.

قبل بضع سنوات، كان المؤرخ قد أبدى تعلّقه بالمكتبة الكبرى حين وهبها مجموعته الخاصة؛ مجموعة تعدّ 35000 من الكتب، والدوريات، والمخطوطات، والمراسلات، والملاحظات، والمسوّدات، والمناشير. كان قد تبرّع بكل ما يملك، بكنزه كاملاً، ولم يستبقِ سوى عشرة من أمهات الكتب.

35000 وثيقة، ثمرة خمسين سنة من البحث، مخزّنة داخل شقة لا تتجاوز مئة وعشرين متراً مربّعاً. أكان ذلك ممكناً حقّاً؟ في البداية، لم يشأ المسؤولون عن الكتب تصديق الأمر؛ فالناس يبالغون عادة، وفي نهاية المطاف، لا تكون مجموعاتهم ذات قيمة. أمر مستعاد.

على عين المكان، اكتشفوا شقة لا يخلو أيّ جدار وأيّ ركن منها من قطع أثاث من الخشب والبلاستيك في شكل رفوف تحمل ثلاثة صفوف مرصوصة من الكتب.

بعد تقييم المجموعة، اقتنع أمناء المكتبة أخيراً. كانت آلاف الكتب هناك حقاً. كانت أرضية الشقة ترزح تحت ثقل الكتب، فانبعجت في بعض زواياها، وكادت الرفوف تنهار من حملها. كانت عملية نقل الكتب صعبة وخطيرة، فما إن يتم الإمساك بعشرة منها حتى ينقلب أحد الرفوف، ويجذب إليه رفاً أو اثنين أثناء سقوطه، فتسقط مئات

الكتب على أمهات الرؤوس. كان عدم انهيار الشقة بأكملها ضرباً من المعجزات؛ فالمدرّسان اللذان كانا يشغلان الدور الأسفل ظنّا أنهما كانا يعيشان حياة الدعة والراحة، لكنّهما كانا في خطر محدق، فكان يكفي أن يجلسا إلى مكتبيهما لينهار عليهما السقف في أيّة لحظة، وتدق أطنان الكتب عنقيهما.

لم تكن مكتبة المؤرخ للزينة، والدليل على ذلك أن كل كتاب كان مسطّراً، ويحوي ملاحظات على هوامشه. لم تكن أيضاً مكتبة عائلية ورثها عن والديه ونمّاها بمرور الأيام. كان أصيل وسط اجتماعي لا يعرف إلى الكتاب سبيلاً. لقد انطلق من الصفر، وكوّن نواة مكتبة تشبهه تماماً، وبدا أن المكتبة أثر مستقلّ بذاته.

لكل وثيقة بصمتها، وكان للمجموعة مطمح فكري مميز: إدراك وفهم دواليب التاريخ، وسيرورة الإنسانية خلال الأزمات والتغيرات والتطورات الحاصلة. كان حرياً بقراءاته أن تساعده في مقاربة إيقاعات الماضي من استمرار وقطيعة. إضافة إلى اهتمام المؤرخ بالفضاء الكوني وبالزمن التاريخي، إن مكتبته كانت تكشف رفضها أيّ خصوصية تاريخية غربية. كان يفكر في العالم كله. كان يود معرفة وفهم تاريخ البلدان كلها، والمناطق كلها والحقبات كلها من بدء الخليقة إلى يومنا هذا.

علاوة على كونها ذاكرة ثقافية بامتياز، إن مكتبة المؤرخ كانت تعبّر عن مرحلة المراكمة الغريزية الطويلة، التي تسبق كل محاولة للبحث العلمي، وتصوّر إرادته سبر كل أغوار المعرفة قبل إنتاج أيّ منها. ما إن يتم قراءة كل شيء حتى يشرع في تطويع التاريخ وجعله علماً صحيحاً.

لم يفُتْه شيء من التاريخ القديم حتى الزمن المعاصر. كان يعرف كل شيء عن التاريخ القر وسطي والتاريخ الحديث، ولم تستعصِ عليه فلسفة التاريخ، ولا تاريخ العلوم والتقنيات، وتاريخ الفن، والتاريخ الاجتماعي والثقافي، وتاريخ الأديان، وحتى تاريخ الطب. كان قد اطلع أيضاً على أربع أو خمس كتب بشأن تاريخ الرياضة البدنية.

لم يضع مؤلفات كثيرة نظراً إلى كمِّ قراءاته الهائل، لكن قائمة مؤلفاته ضمت سبعة عشر عنواناً:

- التاريخ الجديد
- نظام التاريخ
- المشترك في التاريخ
- أين يتجه التاريخ؟
- ما وراء التاريخ
- تاريخ كوني
- تاريخ دون اختيارات
- التاريخ والمؤرخون
- التاريخ والتطور
- تناوب في التطور
- التقدم والتراجع
- أزمنة ومنعرجات
- هل من منعرجات عالمية؟
- قضية الجنوب
- نهاية القرن

- نجاحات الإخفاق
- انتصارات على الزمن.

سؤال: يسعنا التساؤل حول ما إذا كان هذا البحث في التاريخ، الذي استغرق كامل حياتك، تجسيداً للكم الهائل لقراءاتك التي قمت بها طوال خمسين عاماً.

جواب: لقد بحثت طويلاً بشأن طريقة اشتغال التاريخ، يعني ما هو محركه الأساسي. لقد بحثت جيداً في مجال التاريخ الكوني، وخلصت إلى أن التاريخ يوجد فعلاً داخل مخازن ومستودعات المكتبة العظمى.

من بين 35000 وثيقة من مكتبته الخاصة، كان قد احتفظ بعشرة كتب فحسب، العناوين العشرة الأساسية، وقد اعتمد في اختياره على هذه الوضعية:

تخيل نفسك مجبراً على مغادرة شقتك فوراً، وأنت لا تملك غير عشر دقائق. في تلك اللحظة التي يتوجهون فيها نحوك للقضاء عليك مدججين بالسلاح، لا تبدّد وقتك. كلّ ثانية ثمينة، وحياتك على المحكّ. لا يمكنك إلا حمل حقيبة واحدة لا تتسع لأكثر من عشرة كتب لا غير. أسرع. بقيت 9.50 ثانية. عليك أن تتخذ قراراً الآن. أجبني، أية كتب ستحملها معك؟

أدرك المؤرّخ من خلال قراءته أموراً خفية. كان عليه أن يقرأ أقل، وأن يتخذ مسافة من النص، وأن يقفز على بعض الصفحات من هنا وهناك، وأن يتناسى أحد الفصول، ويخلّف بعض الحوارات، ويمحو بعض الشخصيات. كان الأمر ليساعده كثيراً، وكان الخطر الجاثم على صدره ليكون أقل حدّة.

هوسه بقراءة كلّ شيء طوال الوقت مكّنه من الوصول إلى عدة أسماء، لكن تلك الأسماء لم تكن شخصيات خيالية من عالم الأدب، وإنما أسماء لأشرار حقيقيين لا يتورعون عن ارتكاب الجرائم. لم ينصت المؤرخ سوى لضميره، وحرر مقالاً يدين به تلك العصبة المتمردة ونظام القمع التي تشاء إرساءه. بفضحه هذا الخطر المحدق، كان يريد تفكيك هاته العصابة، وإرباك الأثرياء والمتنفذين من ورائها. كان يود إدانة شبكة إجرامية كاملة، وكان يعقد الأمل في قدرة النص، ليس على التخلص من العدو، بل على تغيير الأوضاع. كانت الكتابة بالنسبة إليه أداة للتغيير. كان يدرك هدفه والعواقب التي تنتظره نتيجة كتاباته ومنشوراته. كان في وسع ردود الفعل أن تكون عنيفة جداً. كان عليه أن يتوقع وقوف النص ضدّ كاتبه. لو كانت الكتابة سلاحاً لكان لها حدّان.

حين أتمّ مقاله، توجه إلى إحدى الدوريات، التي سبق له المساهمة فيها، والتي كانت مواقفها شبيهة بمواقفه. تحسّباً لأي إخفاق، كان قد سلّم نصه بيديه إلى صديق قديم، مؤرخ بدوره، وعضو في لجنة القراءة والتحرير.

كان المؤرخ يظنّ أنه اتخذ جميع الاحتياطات، لكن الأمر اختلط عليه. اكتشف أفراد العصابة نصّه بطريقة ما، كأن أحدهم كان يتلصص عليه من فوق كتفه. ربما كان لديهم حليف ما، عُيّن لهم في لجنة تحرير الدورية. على كل، كانوا قد اكتشفوا كل ما كان المؤرخ يعلم عنهم، وكيف كان يخطط لإحباط مخططهم الجهنمي، وفضح دوافعهم الدنيئة.

كانت رياح التغيير تعصف بالدورية آنذاك؛ فهبوط رقم المبيعات خلال السنوات الخمس الأخيرة تسبّبَ في عجز مالي كبير رفض

تغطيته ممول المجلة؛ ذلك الصناعي الكبير الذي ورث إمبراطوريته عن أبيه. كان مستعداً لخسارة الأموال، فهي لم تكن تعني شيئاً له؛ كان في وسعه نثر الأموال من النافذة؛ إذ كان يملك منها رصيداً كبيراً في المصارف، لكنه كان يمتعض من نشر دورية لا تباع جيداً، ولا يقرؤها غير أعضاء لجنة التحرير، وبعض أقاربهم. كان يؤكد أن حال المجلة لن يتغير في المستقبل القريب، وأن القراء لن تعود إليها بعد هجرها؛ فالمجلة تكتسب قراءها بعد سنوات عديدة، ويكفيها نص فاشل أو نصان ليهجروها بالعشرات.

اضطر المشرفون على المجلة إلى تغيير طريقة عملهم، واختاروا تغيير شكلها (في الواقع، كانوا ضحية ليّ ذراع، فكان هذا أو إيقاف صدور المجلة). وفي خضم التحول من النشر الورقي إلى الرقمي، ضاع نص المؤرخ، وأصبح ملفاً لا غير داخل قاعدة بيانات أقلّ تنظيماً من مكتب رئيس التحرير.

لم يُنشر النص في الدورية فحسب، بل وُضع كاتبه على رأس قائمة المهدّدين بالقتل. ولم يكن المؤرخ يدري أنه كان مستهدفاً، وكان ربما ليُعدَم لولا أن إحدى صديقاته انتبهت إلى الأمر لحظتها.

في أحد أيام الإثنين، تمام السادسة مساء، رنّ هاتف المؤرخ. لم تمنحه محادِثته اسمها، وقدمت نفسها بوصفها صديقة. كان صوتها مألوفاً، لكنه أخفق في ربطه بصورتها. كانت المتحدثة قد أنذرته في اقتضاب بشأن الخطر المحدق به. كان عليه مغادرة شقّته بسرعة ليتجنب تصفيته.

أمرته قائلة:

- موعدنا بعد عشر دقائق عند تقاطع شارع أ وشارع ب. ستجدني ممسكة بمقود سيارة مؤجرة، وسأحملك إلى مكان آمن.

تردد المؤرخ لبضع ثوانٍ بشأن هذا المسار. كان مقاله ضائعاً، ومن الممكن أن يكون في حوزة بعض الأشرار، وهكذا كان يتهدده خطر كبير. تناول حقيبته، وحشر فيها ملابسه ومستلزماته، ووضع فيها تلك الكتب العشرة الشهيرة.

بعد مضيّ دقيقتين، كان يشغل مقعداً في سيارة السيدة التي زعمت أنها صديقته. كان يعرف هذا الوجه. كانت السيدة تثير في ذهنه شيئاً ما، لكنه لم يتوصل إلى معرفتها.

داخل قاعة المطالعة، كان على المؤرخ رفع رأسه مراراً لكي يحفظ صورة تلك السيدة، التي أخذت إجازة لنصف يوم لكي تنقذ حياته. لم يكن المرء ليخطئها، فقد كانت هناك كلّ يوم أمام مكتب الاستقبال. دأب المؤرخ على النظر إليها طوال سنوات دون أن يراها فعلاً، كأنه كان لا يرى غير نصوصه الماثلة أمامه.

لقد جعلته يلاحظ أنها كانت غبر مرئية في عينيه دون أن تؤنبه، فقد كان ذلك من صميم عملها؛ إنها أمينة المكتبة، وذلك يعني أنها خفية. قال لها المؤرخ إنه لم يكن يرى جيداً. كان لا يرى من بعيد، وكانت هي أمينة المكتبة الحمراء.

وضع المؤرخ نظارته، وراح يفكّر:

«هذا المسار لا مبرر له. في البداية، رحنا نسير بشكل دوائر تحيط بنقطة الانطلاق، ثمّ انطلقنا في خطّ مستقيم طويل، وانعطفنا يميناً فجأة تحت صرير العجلات. عند خروجنا من المنعطف، خفضنا من سرعتنا، ثمّ زدنا منها دون مبرر، وانعطفنا شمالاً مرتين، واخترقنا مفترقاً دائرياً بسرعة فائقة، ثم ألفينا خطاً مستقيماً ثانياً. من بعد ذلك، سرنا في الاتجاه المعاكس داخل نفق وأضواء السيارة مطفأة. كل هذا العناء لنعود إلى نقطة الانطلاق. هل فعلت صواباً حين صعدت إلى هاته السيارة؟».

كان المؤرخ يعاني مشكلات في القلب، فأخذ يفتح النافذة ليسمح للهواء المنعش بالنفاذ إلى داخل السيارة. لكنّ أمينة المكتبة خفضت السرعة. كانت منذ دقائق تخوض سباقاً ضد الزمن مع سيارة شبح، والآن صارت تسير ببطء شديد حتى تجاوزتها بعض الدراجات، وصارت السيارات تستحثّها بإشارات ضوئية، وتطلق الدراجات البخارية نفيرها من خلفها، وكان الجميع يلوّح بحركات مشينة. لم يؤثر كلّ ذلك في طريقتها في القيادة. كانت أمينة المكتبة لا تأبه لهم، وواصلت طريقها وهي تطلق صفيراً، وطافت ثلاث مرات بالمفترق الدائري نفسه، تزيد من سرعتها في المنعرجات، وتخفض منها في الطرق المستقيمة.

لم ينم المؤرخ طوال الليل، فأخذ يتثاءب، وأغمض جفنيه، وخلد إلى النوم أخيراً. أيقظه فجأة توقف السيارة أمام المكتبة الكبرى. اختارت الأمينة بصحبة المؤرخ طريقاً ثانياً أطول مما يحتاج إليه الوصول من نقطة إلى أخرى لكيلا يتم تعقّبهما.

قالت أمينة المكتبة الحمراء، وهي تناول المؤرخ بطاقة للدخول:

- هذا ملاذك.

تمام الساعة 20.18، فتح المؤرخ الأبواب بتمرير بطاقته على القفل الإلكتروني. اقتحم، وهاتفه في جيبه، هذا الفضاء الخالي من النوافذ والساعات؛ حيث كانت الكتب تعيش في سلام، الذي يُطلق عليه اسم «مخازن». حذرته أمينة المكتبة قبل انصرافها:

- انتبه جيداً. الليل في المكتبة خطير أيضاً. اسمع نصيحتي: لا تقرأ، لا تفتح كتباً من منتصف الليل إلى التاسعة صباحاً، وإلا فسيتمّ افتراسك.

صعد المؤرخ السلالم، ثم ركب مصعداً، ثمّ تسلّق سلّماً، وعبر بعض الجدران. كانت الأبواب تفتح أمامه، وقد خرق كلّ إشارات السلامة بركوبه رافعة بضائع. رغم أن المستودعات شاسعة، كانت الحرارة والرطوبة تحت السيطرة، وذلك ما لاحظه المؤرّخ.

أخذ يرنو عبر الفجوات إلى الرفوف؛ حيث رُتِّبت الكتب والأسفار حسب مجالاتها، وحسب أحجامها، وتاريخ دخولها المكتبة. مسح بعينيه كلّ التراث المكتوب، ملايين الكتب، ومئات الآلاف من المؤلفين، والطبعات الأصلية، والطبعات المنقحة المزيدة، والمراسلات، والمخطوطات، والخرائط، وملايين النصوص التي تمت دراستها، والتعليق عليها، والكتابة في هوامشها، بيدِ أحد الباحثين أو المؤلفين، والنصوص التي اشتهرت، أو الأخرى التي لفّها النسيان، والكتب المقتناة، أو تلك التي تم التبرع بها، أو حتى تلك التي تمّت مصادرتها.

توغّل المؤرخ داخل المعرفة، وسافر بين الشعوب، والمجتمعات، والبلدان، واجتاز العلوم، والتقنيات، واللغات، والمؤلفات، والفنون، والأديان، وزار العالم القديم والعالم الحديث، وولج عالم الفنون الشعبية، والحكايات، والأساطير.

لم يظهر المؤرخ في المكتبة صباح الغد، ولا حتى في الأيام اللاحقة. صرت قلقاً بشأنه. ليس من عادته التغيب لعدة أيام على التوالي. في الأيام العادية، كان يفِد يومياً، وكان ينتزع نفسه من فراشه حتى لو به علّة، فيتجاوز نصائح الطبيب، ويحضر إلى قاعة المطالعة، وهو يعاني سعالاً وحمى مرتفعة. إن كتب الهيستوجرافيا، التي كان يدرسها، أول من نبّه أمناء المكتبة الذين استحثوا مسؤول الأمن ليعثر على عنوان إحدى قريباته ويتصل بها.

رفعت هذه الأخيرة السماعة منذ الرنة الأولى، لكنها احتاجت إلى وهلة لتفهم فحوى المكالمة. لماذا قد يسأل رجل أمن المكتبة الكبرى عن أحوال أبيها بإلحاح؟ أول الاتصال، كانت تتحدث بصوت بارد ونبرة آلية كأنها مجيب الهاتف. لم تكن تنصت إلى محدّثها فعلاً. كانت شاردة الذهن. لقد فاجأتها المكالمة وهي بصدد معالجة أحد الكتب.

بعد أن تلقت تكويناً أدبياً كلاسيكياً، تحولت ابنة المؤرخ إلى مجال العلوم، فتخصصت في تغيير جنس الأنواع الأدبية. كانت تغير الشعر إلى الرواية، وتحيل الرواية شعراً عبر طرق معقّدة.

قالت لمحدّثها:

- يوجد من غير البشر من يتحوّل جنسياً. هذا يمسّ الكتب أيضاً. علينا مواجهة الواقع: لم تختر القصائد واقعها، ولا ترضى الروايات بتسميتها. إن الناشرين عادة، وأصحاب المكتبات، وأمناء المكتبات، من يفرض عليها جنسها. لو تعمّقنا أكثر، لاكتشفنا قصائد تَعدّ نفسها روايات، وروايات تتمنى لو كانت شعراً. انظر، عرفت رواية رعب شعرَت بسعادة كبيرة حين تحوّلَت إلى شعر غنائي. لم تكن راضية بالعنف والشر الكامن فيها. أنا لا أمارس شيئاً خارجاً عن القانون، لكن الناس ينظرون إليه بسوء. كثير منهم يبغضني، ويوجّه إلي رسائل تهديد يومياً. ترفض المؤسسات الأدبية الاعتراف بالنصوص المتحولة جنسياً. بالنسبة إليها، على الرواية أن تبقى رواية، والشعر شعراً، وإلا فالأدب إلى زوال. لا يهمّني، يوماً ما، سيحتكمون إلى رأيي. يا له من وقت ضائع. في الأثناء، لا أتلقى دعماً، وأضطر إلى تعديل أتعابي حسب موارد الزبائن. الروايات الضخمة توفر سعراً أعلى من كتب الشعر. حسناً، لا أعلم ما الذي يدفعني إلى محادثتك. باختصار، أنت المسؤول عن أمن المكتبة الكبرى، وتسألني عما إذا رأيتُ أبي مؤخراً؟ حسناً، لا، لم أره، ولا أعلم شيئاً عن أحواله، لكنني سأبلغك حالما يستجد أمر ما.

بعد إنهاء المكالمة، اتصلت ابنة المؤرخ بأبيها، لكنّها لم تفلح، فتركت له رسالة صوتية، ثم طرقت باب غرفته دون جواب. أمسكت هاتفها واتصلت مراراً. لم تجد حلاً، فاتصلت برجال المطافئ الذين أتوا بعد لأيٍ، واقتحموا باب الشقة.

كانت الرفوف الخاوية توحي بأنّ رجلاً مولعاً بالكتب قد عاش هنا، لكن طبقات الغبار الكثيفة، التي شكّلت ما يشبه سجّاداً داكن اللون فوق قطع الأثاث، أوحت بالعكس تماماً.

لم يجد البوليس آثار عنف، أو بصمات، أو أدنى إشارة، وتم إعلان البحث عن شهود عيان:

«تمّ اختفاء أحد القراء المتمرسين بين مساء السبت وصباح الإثنين. إنه أعزل وليس خطيراً. لا تخشوا شيئاً. إنه مؤرخ. لو لمحتم هذا الرجل، لا تفعلوا شيئاً. أبلغوا المكتبة الأقرب إليكم فحسب».

مرّت الأسابيع دون أدنى أثر أو إشارة أو بصمات، ولم يظهر شاهد واحد، أو أي عنصر جديد يقتفي البوليس أثره. ما من دليل على حياته أو موته. كان يبدو أن المؤرخ قد خرّ مغشياً عليه فحسب.

إثر مرور ثلاثة أشهر، تمّ العثور على أثره داخل الكتب. كان المؤرّخ قد اختفى ليظهر شخصيةً رئيسيةً داخل الروايات والمقالات والأبحاث. وسال كثير من الحبر حول اختفائه. أذكر جيداً أنه في ذاك الوقت كانت كلّ الموضوعات، التي لا تتعلّق بشأنه، ثانوية دونما أدنى اهتمام. وفي أوساط القراء، صرنا نتحدّث عن القضية الكبرى. لقد تابعتها باهتمام شديد.

أعلم أن أولى الوثائق، التي كُتبت بشأن القضية، كانت قصصاً ذات أسلوب صحفي، وبعض التحقيقات التي سعت إلى حلّ هذا الاختفاء الغامض. وزعمت أن الحقيقة بعيدة المنال. كانت القضية تنطوي على بؤر مظلمة كان لا بد من تسليط الضوء عليها مهما كان الثمن. كان الأمر يمتّ بصلة إلى مصداقية الكتب وقدرتها على تحفيز اهتمام

القرّاء. رغم أنه لا أحد كان يملك ما يفيد إدراكه ما حصل، فقد ألقت الأزمة بظلالها؛ حيث انبرى العديد من الكتب لتدلي بآرائها. صار التنافس بين الكتب ضارياً. ظاهرة صحية أو سلبية، لكنها كانت تسمح بتعدد الآراء. مثل كل مشادات الخبراء، كان كل كتاب يقدم تحليله للأشياء بغية إنارة الرأي العام بشأن ظاهرة يبدو أنها لا تملك تفسيراً. كيف يختفي أحدهم هكذا دون أي أثر؟ قدم العديد من الكتب تحاليل منطقية، لكنها تاهت في زحمة المعلومات الناقصة، والأحكام غير المحايدة، والآراء التافهة، التي كوّنت الجزء الأعظم من الكتب. لكن من يريد أن يكون منطقياً؟ أرى أن الأهم هو أن نصدح بأصواتنا عالياً، ونشارك في النقاش حتى في أمور تافهة وغير منطقية.

تشكلت الموجة الثانية من المنشورات العلمية ومحاضر الندوات التي خصصت لآثاره، أو أقيمت على شرفه. كان الأمر يتعلّق بتكريم الباحث، والاحتفاء بالمثقّف، والقارئ الذي لا يكلّ، ذلك الذي ظل متعطشاً إلى المعرفة بالنهم نفسه الذي عرفه في مراهقته. لقد تم وصف المؤرخ بأنه عالم: ذلك الذي يبحث عن المصادر، يقارن معلوماته، يلقي دروساً، وينخرط في محاورات مثمرة مع زملائه وأقاربه. كان ذلك المؤرخ التقليدي، الذي يدون استنتاجاته في كتب، ودوريات علمية، وملخصات الندوات. كلّ ذلك كان يعطي انطباعاً متناقضاً بأن المؤرخ قد ظلّ نشطاً ومنتجاً رغم اختفائه. دون أي براهين، كانت هذه الكتب توحي بأن المؤرّخ قد اختبأ في مكان ما، وانعزل باختياره لكي يتفرغ لبحوثه. كان في جزيرته، في مكمنه، في مخبئه، في ملجئه، في منزله الريفي يقرأ، ويفكر، ويكتب.

وكانت الموجة الثالثة من الكتب المخصصة للقضية تندرج ضمن سياق مختلف: مجال كتب الإثارة، والرعب، والجريمة، والمغامرات. لأجلها، خلع المؤرخ ثوب المثقف ليرتدي ثوب المناضل السياسي. كانت كتب الإثارة والجريمة تقدم المؤرخ بوصفه عضواً نشطاً ضمن منظمة معادية للاستعمار. بدل أن يناضل في مجال الفكر، كان هذه المرة في قلب المعارك؛ كان يحمل حقائب مليئة بوثائق فائقة السرية، وينظم اجتماعات سرية، ويتآمر، ويتجسّس، ويستعمل عدة جوازات سفر، وكان تارة أشقر، رشيقاً، وأصلع، وطوراً يصبح أسمر البشرة، مفتول العضلات، يحمل شارباً (ومهما كانت درجة تنكّره، كان يعرّض حياته للخطر في كل مكان). وكان قد تابع تكويناً في صنع المتفجرات، فصار ينسف الجسور ويلغّم السيارات. لم يكن الأستاذ الجامعي سوى غطاء يخفي عميلاً ميدانياً يتحدى الخطر، ويعمل في الهواء الطلق، ولا يخاف الصراع ليدافع عن قضية ضرورية وعادلة. للأسف، اتخذت المغامرة منعرجاً حزيناً: كان دون شك ضحية وشاية من صديق زائف، فأُلقِي عليه القبض وزُجّ به في أحد الكهوف. كان أعداؤه يعذّبونه قائلين: نريد معلومات، نريد أسماء، أخبرنا كل ما تعرفه. أيّ معلومات؟ صار يصرخ بعد أن اقتلعوا أظفاره. ليس لدي معلومات. أنا الشخص الخطأ، لست عميلاً سرياً، أنا مؤرّخ. كانت بعض الروايات البوليسية تنتهي على هذا النحو، وكانت أخرى تروي أن المؤرخ قد تمكن من الهروب، لكن هروبه لم يدم طويلاً؛ تم القبض عليه بسرعة، وكان يتعرض للضرب على أمّ رأسه بوساطة سبعة مجلّدات من كتاب (التيارات الكبرى للتاريخ الكوني)، يعني 4800 صفحة كاملة. فقد المؤرخ وعيه، ونُقل جسمه الخالي من الحياة ليلاً إلى أرصفة مهجورة؛ حيث أُلقِي في مياه النهر

القاتمة التي غرق فيها تحت ثقل المجلدات التي رُبطت إلى قدميه. كان الأمر كله مجرد افتراض؛ لأنه لم يُعثر على جثّة المؤرخ. نتجت عن غياب الجثة مزايدات بلا نهاية، وكانت سبباً في تزويد الكتب المزمع صدورها بأخبار عجيبة. وهكذا حلم الجميع بنشر العديد من الكتب التي تزعم تقديم حلّ للأحجية دون أن تخشى تكذيبها من طرف الوقائع، والحقائق العلمية، والأدلة المحسوسة، وتشريح الجثة. كان الخطر الوحيد هو ملل القراء بطول المدّة.

وعلى كل حال، لقد كانت القضية برمتها تندرج في مجال الكتب، وكانت تهيمن على هذا الميدان، لكنها كانت جالبة للسخرية في مجالات أخرى؛ حيث لا ذكر لها خارج الصفحات، سوى كونها حدثاً بسيطاً اهتم به البوليس بفتور تام، فأرسل فريقاً صغيراً قام بالتحقيقات وخرج بخلاصة مخيّبة للآمال. فالبنسبة إليهم، لم يتجاوز الأمر اختفاء أحد الأشخاص، وماذا بعد؟ لكم أرادوا أن يترك الرجل وشأنه، فقد كان ذلك يحدث غالباً. لا شكّ في أنه لجأ إلى منزل ريفي كان قد أجّره باسم مستعار، لكيلا يزعجه أحد. كان في الإمكان تصور الرجل في مكمنه يقرأ كل المزايدات التي كُتِبت بشأنه وهو يضحك. قال البوليس إنهم يشهدون اختفاء أشخاص بوتيرة يومية، وخاصة حين يحلّ سنّ التقاعد. عدد هائل من النصوص كُتبت بشأن هذا الرحيل: يختفي أحدهم بصورة غامضة، فيزرع الريبة، ويدغدغ فضول القراء الذين يعلمون لاحقاً أنّ هذا الاختفاء مدبّر بليل إرضاء لذائقة الروايات البوليسية المشوّقة. لكن رغم شغف القراء بأدب الإثارة، إنّ البوليس في حدّ ذاته لم يبد حماسةً كبيرةً: لا جديد يذكر، لا تقلقوا، أغلقوا كتبكم، أو اقلبوا الصفحة.

كلّ المعضلة أنّ قراء المكتبة شغلتهم القضية، فأهملوا مجموعات الكتب الباقية. لم يكن لأيّ كتاب لا يتناول القضية أدنى درجة من الاهتمام. والنتيجة انخفاض حادّ في استعارة وقراءة الكتب. كان الأمر شاقاً وقاسياً بالنسبة إلى الكتب الأكثر مبيعاً التي تفخر بعدد قرّائها وبمساهمتها في نجاح المكتبة خاصةً.

رغم أن انخفاض استعارة الكتب قد شكل خبراً سيئاً، لم أبدِ استعداداً للبكاء على حظّ الكتب العاثر. بصراحة، لم أكنّ لها الودّ، ولم أحبّ تواضعها الزائف. لا أقول هذا جزافاً، إنما أقوله وأنا على دراية بالأمر، فقد التقيت بعضها عند حلولي في المكتبة. أتذكر خاصةً إحدى الروايات، التي كانت تمضي وقتها في إحصاء قرائها لتقدّم أرقامها آخر الأسبوع بنفاق ظاهر:

- لم أرتح لخمس دقائق. ظننت أنّ القراء لن يتركوني وشأني. أكثر من ألف قارئ في أسبوع. هذا ضرب من الجنون. انتبهوا. أنا لا أتذمّر من كثرة قرائي الأوفياء. العديد من الكتب تتمنى أن توجد مكاني. كم نشعر بالرضا لكثرة قرائنا، لكنّ الأمر مرهق بطول المدة. آه لو تعلمون. الشهرة ليست متاحة بسهولة، لكنْ ما الذي يسعني فعله؟ لا يمكنني منع الناس من الإعجاب بي. حسناً، من حسن حظي أنني أرتاح يوم الأحد. وأنت، كيف حالك؟ أسبوع موفّق؟

بين ليلة وضحاها، لم يعد القراء يعيرون الكتب الأكثر مبيعاً أدنى اهتمام. توقفوا عن النظر إليها ولمسها. تجربة مريرة بالنسبة إلى تلك التي اعتقدت دوماً بهذا القول: سبب شعبيتكِ أنكِ الأفضل على الساحة، ولمّا كنتِ الأفضل فمن الطبيعي أن تكوني الأكثر شعبية. كلّ الكتب التي تعوّدت على الصراع من أجل الفوز بها، وعلى قائمات الانتظار

الطويلة التي ينخرط بها قراؤها، وعلى الإيقاع الجنوني الذي يقبلون به عليها، تبلى باكراً ضريبة لنجاحها، كلّ هاته الكتب صارت تقضي أيامها داخل رطوبة المخازن، ولا تلتقي أحداً سوى بعض العاملين بها.

اكتشفت الكتب الأكثر شعبية حياةَ الكتب التي لا يلمسها سوى عدد قليل من القراء: الإقصاء والتهميش بدعوى صعوبة قراءتها، وعدم مواكبتها لعصرها. لقد عاشت تجربة البطالة الطويلة، سوى لحظاتٍ يتناولها فيها أحد القراء ليقرأها ساعة أو ساعتين، ويلفظها أسابيعَ طويلة. لم تفهم ماذا يحدث لها، ولم تصدق أن القراء يسعهم الاستغناء عنها. لقد سخرت طويلاً من معاناتها. في المساء، فوق الرفوف، كنت أسمع عويلها: ماذا يحدث لنا؟ أين راح قراؤنا الأوفياء؟ ماذا فعلنا ليحصل لنا كلّ هذا؟ هذا ليس عدلاً. اللعنة، لسنا دواوين شعر.

في الأثناء، واصلت القضية الاستحواذ على القراء. كان زمن الروايات العنيفة القاسية. من شدة تعرضهم إلى مشاهد الاحتجاز والتعذيب، شعر القراء أنهم مهددون. اختفى أحدهم فعلاً، فقد ظن أنه سيجد ضالته في الكتب، فصارت هذه الكتب تعذبه. في نهاية المطاف، إن الكتب من احتجز المؤرخ فعلاً. كان سجينها الذي تعرض إلى أسوأ أنواع تعذيبها.

عندها، قرر القراء أنّ القراءة قد تمثّل خطراً محدقاً؛ ففتحُ كتابٍ ما قد يعرضك إلى خطر الابتلاع، أو الزج بك في بؤرة ما. أصبح القراء ينظرون إلى الكتب بشيء من الريبة، ولاسيما الكتب الأدبية، ليس لأنها تحمل قيماً غامضة تقوض السلم الاجتماعي فحسب، بل أيضاً لأن سلامة القارئ معها لم تكن مضمونة تماماً. فكتبوا رسالة إلى إدارة المكتبة:

«لقد لاحظنا، اليوم، أن الآثار الأدبية لم تعد تستجيب لتطلّعاتنا. نبحث عن الترفيه فتبدي هي جدية كبيرة، وحين نبحث عن أجوبة جدية، تنخرط في شيء من الخفة والغرابة. بدا لنا أنها صارت نرجسية، وصعبة المنال، ومنعزلة عن الواقع، وبعيدة عن مشاغل الناس. لم نعد نجد ضالتنا بين طيف من الكتب النخبوية والتافهة والدعيّة. لا ننسى أن جزءاً صغيراً منها ظلّ ذكياً وممتعاً، لكن لبّ المشكل مختلف تماماً. المسألة هي أن قراءة الأدب لا تدرّ ربحاً. لا أحد يسعه قول العكس. لم تكن قراءة الأدب أبداً نشاطاً يدرّ الربح على المدى القريب. حتى لو كانت القراءة مجانية، إننا لا نكسب شيئاً منها. لكنّنا صرنا نريد تثمين وقتنا، حتى لو كان وقتاً مخصّصاً للترفيه. إنه -لا شك- أكبر تغيير شهدناه هذه السنوات الأخيرة. الآن صارا لزاماً علينا أن نكسب شيئاً حتى من أوقات فراغنا. إن الأوضاع الاقتصادية لم تعد تسمح لنا بممارسة أنشطة مجانية. لقد مارسنا القراءة دون هدف محدد، ودون مكسب فوري، وما زلنا نمارسها، لكننا لن نقوم بذلك مستقبلاً سوى حين نحقق أهدافنا، ونعرف إلى الاستقرار والسعادة سبيلا، ونمنح أنفسنا قسطاً من الراحة. نرجو من المكتبة أن تطور من نفسها لكي تستجيب لتطلّعاتنا. صرنا اليوم في حاجة إلى مكتبة تتفاعل معنا، وتفسح لنا المجال لاكتساب المعرفة واللهو والعمل على حد سواء، مكتبة تمكننا من الالتصاق بحاضرنا، فلا نضيع هذه الفرصة الرائعة لنطور من أنفسنا، ونستغل عروض الشغل التي تناسبنا. نحتاج إلى مكتبة تمكننا من إثراء قدراتنا الفكرية، وانخراطنا في قضايا نبيلة، ومن الوصول إلى الثروة، وتمكننا من تكبير القضيب، ومن امتلاك أجهزة كمبيوتر قوية وزهيدة في آن. نريد مكتبة تغير حيواتنا، تغير شكل رؤوسنا وطول قضباننا،

تغير مهننا، وتمكننا من الفوز بمهنة أحلامنا، وحتى العثور على نصفنا الآخر. نريد تغيير مسار وجودنا، والعيش في تناغم مع محيطنا. نريد إنقاذ كوكب الأرض باسم المصلحة الجماعية، وتقاسم تجارب السفر مع أكبر عدد ممكن. نريد جمع المعلومات، والترفيه، والعمل في آن. نحتاج إلى مكتبة تمكننا من تعلم لغة أجنبية في عشرة أيام، وبكتابة رسالة عزاء محتشمة. نحتاج إلى من يوفر لنا أدوات كتابة قصيدة بلسان الإيموجي، ورواية من صفحتين، وسيرة ذاتية، ويمكّننا من تقمّص دور مصاص دماء، وربط علاقة غرامية مع نجمتنا المفضلة. نريد أن يسمح لنا بإبداء آرائنا بشأن الكتب والأفلام الحديثة الصدور. نحلم بأن نصبح كتّاباً، ومحرّرين، ومنشّطين، وناقدي فنون، وأصدقاء للآلاف من الناس. نحتاج بشدة إلى مكتبة تمنحنا أدوات ضرورية لنمسك بزمام حيواتنا».

لقد تغيّر القراء، وطوّروا احتياجات مختلفة، فقد صاروا يستغنون عن الكتب بكل بساطة. كانوا يفتحون حواسيبهم حال وصولهم إلى قاعة القراءة، ويبحرون عبر الإنترنت بحثاً عن أيّ شيء لم يبدُ أنهم كانوا يعلمون كنهه أصلاً. كانوا يتعلقون بعدد مهول من الملفات والوسائط ينهلون منها بنهم وجنون، كما لو كانوا يتصفحون ثلاثين كتاباً دفعة واحدة. كانوا ينطلقون من النقطة (أ) إلى النقطة (ياء)، وفي الأثناء كانوا يبعثرون الحروف الأبجدية، فما إن يصلوا إلى حرف الياء حتى يضلّوا هدفهم الأصلي، وينسوا ما أتوا من أجله أصلاً، لكنهم يبحرون على الإنترنت مستمتعين بالتسكع في مناطق لم يكن مزمعاً الذهاب إليها منذ البداية.

كانوا يستعرضون شتى الوثائق من مطالب ترشح إلى الوظائف إلى شكاوى متعلقة بخطايا مجحفة مروراً بسرديات رحلات إلى أراضٍ

مجهولة، ورسائل غرامية، ورسائل ملؤها الشتائم، ورسائل تعزية، ونكات بذيئة، ووصفات طبخ، وبلاغات سياسية، وعقود بيع، ونقد للأفلام السينمائية، وإعلانات تجارية، وملخصات روايات، وشهادات بنّاءة. لم يكن يهمهم أن تلك الوثائق لم تكن تحيلهم إلى وضعيات حقيقية تحتاج إلى توضيح، أو شرح، أو حلولٍ؛ فالرواية التي اطلعوا على ملخصها لم يتم نشرها ربما، والشهادة التي قرؤوها لا تشير إلى أحد، ورسالة الرفض لا تجيب أيّ مطلب ترشّح تم تقديمه من قبل، حتى اسم المشغل لا يوجد. أما رسالة التعزية، الّتي استدرّت دموعهم في البداية، وجعلتهم يتطلعون إلى تحقيق العدالة بأنفسهم، لم تُشرْ بعد بحث دقيق إلى وجود أيّ قتيل. كان الأمر كله مجرّد مزحة ثقيلة.

كان القراء يحتاجون إلى شبكة الإنترنت ليطلعوا على شتى الوثائق الصحيحة والمغلوطة. كان ذلك مطلبهم الأساسي. تشير عليهم بملايين الوثائق المطبوعة المتاحة لهم لتذكرهم أن المكتبة تحوي وثائق في المقام الأول، فيردّون بأن التراث المكتوب كنز لا يفنى، وأنهم يعشقون الكتب، لكنهم يسألونك فوراً: متى تعود تغطية شبكة الإنترنت؟

في ظل هذه المقاربة الجديدة، لم يتبقَّ الكثير لأمينات المكتبة غير الإجابة عن بعض الأسئلة الإجرائية. حين لا يُسألنَ عن تغطية الشبكة، يُسألنَ عن مكان دورة المياه، أو عن مشاكل التكييف. يشعر القراء بالبرد الشديد، فيعدّلنَ التدفئة المركزية، يشعرون بارتفاع الحرارة، فيلطِّفنَ من حرارة المكيف. لا توجد أكواب قرب نافورة مياه الشرب؟ ألا يستحقّ هذا المقعد إصلاحاً؟ لم تمتّ أنشطتهنَّ إلى مهنهنّ الأصلية بصلة قط.

رغم ذلك، كانت الوضعية توحي ببعض الإيجابية؛ لأن أمينات المكتبة يكتنفهنّ الهدوء التام بعد إرشاد القراء إلى دورة المياه، وتوفير الأقداح، وعودة تغطية الإنترنت، وتعديل الحرارة المثلى داخل القاعة. حينها يوفرنَ لأنفسهنَّ بعض الوقت الذي يمكنهنّ من مطالعة الكتب أثناء تأدية عملهنّ.

بوصفي كتاباً داخل المكتبة الكبرى، لطالما شعرتُ بتعاطف مع أميناتها، وكانت رؤيتي لهنّ وهنَّ ينزلن تحت رغبات القراء، الذين لا يقرؤون سوى شاشات حواسيبهم، تصيبني بغضبٍ شديد. فكتبت إليهنّ مستفسراً:

«عزيزاتي أمينات المكتبة:

يمكنكنّ الاعتزاز بامتلاك قاعة قراءة مليئة، لكن أتعلمنَ من يشغلها؟ من هم؟ من أيّ سلالة خبيثة؟ ثمّ ماذا يفعلون هنا؟ هل يشتغلون؟ علامَ يشتغلون؟ لمصلحة من؟ ألديهم مشغّل أم تراهم يعملون لحسابهم الخاصّ؟ أَتمّ حثّهم على المجيء أم جاؤوا من تلقاء أنفسهم؟ هل قَدِموا بسبب دوافع خاصة؟ وفي هاته الحال، أيّة دوافع؟ هل تكفي زيارة المكتبة ليُعدَّ المرء قارئاً؟ كم قارئاً يوجد في هذه القاعة؟ هل علينا أن نطلق عليهم صفة قراء؟ كيف نميّز قارئاً حين نلمح أحدهم؟

ستقلنَ لي: ليست الكتب من خلق القرّاء. هذا صحيح، فالفضل لا يعود إلينا، ولا يعود إلى المكتبة أيضاً. كان ثمّة قراء قبل افتتاح المكتبة، وسيبقون حتماً بعد فنائها. كان الناس يقرؤون قبل بداية صدور الكتب، وسيواصلون القراءة حتى بعد إصدار آخر كتاب. ليس السؤال بشأن معرفة ما إذا كانوا سيواصلون القراءة، بل بشأن ماذا سيقرؤون،

وكيف؟ هل سيقرؤون كتباً؟ وكم منّا سينجو؟ وما مصير أولئك الذين يلفظهم القرّاء؟

أريد أجوبة.

مودّتي.

الكتاب الشاب الغاضب».

قالت أمينات المكتبة، بعد تفكير، إنني لم أكن مخطئاً، فكلمة قارئ لم تعد ملائمة تماماً.

قالت أمينة المكتبة الزرقاء: القرّاء؟ صار ذلك من الماضي.

وقالت الأمينة البنفسجية: لم تعد الكلمة تعبّر عن عصرها.

وقالت الأمينة البيضاء: يجب ابتكار شيء جديد.

وقالت الأمينة الصفراء: علينا التشاور بشأن الأمر. سنطالب بعقد اجتماع طارئ قوام جدول أعماله نقطة واحدة: التعريف بهوية القارئ اليوم.

راحت ستّ أمينات مكتبة يتناقشنَ:

أمينة المكتبة الخضراء: يمكننا استبدال كلمة مستخدمين بكلمة قراء. إنها عامة أكثر.

أمينة المكتبة الزرقاء: مستخدمين؟ لِمَ لا؟

أمينة المكتبة الحمراء: سنحافظ على كلمة منخرطين...

أمينة المكتبة الصفراء: المنخرطين؟ لا، غير ملائمة. إنها عامة جداً.

وافقت الخضراء والزرقاء، ونحت الحمراء نحوهنّ، وهي في أعماقها لم تكن موافقة تماماً، فقد اقترحت فكرة المنخرطين ليرتقي الحوار.

أمينة المكتبة البيضاء: إذا كانت كلمة مستخدمين أو كلمة منخرطين غير ملائمة، فلنبتكر كلمة أخرى.

أمينة المكتبة البنفسجية: مهلاً، لديّ فكرة. إنّ هذا النوع من المستخدمين يُعرَفون بإقامتهم داخل المكتبة دون استخدام مجموعاتها من الكتب. في هذه الحال، أقترح أن ندعوهم المقيمين.

المقيم (ة) ذلك، أو تلك التي تستغلّ قاعة القراءة للجلوس إلى الكتب دون استخدام موارد المكتبة. مرادفها ساكن عشوائي.

خبرتُ كلّ أنواع القراء من الأكاديميين والمتحمسين والمرضى والمتشككين، وسمعت بمن يقرأ عن قرب، ومن يقرأ عن بعد. كنت أعلم بوجود قرّاء كصيّادي السباع، وآخرين مثل الرحالة المستكشفين. كنت أظنّ أنني عرفت فعلاً كلّ الأنواع، لكنّني كنت مخطئاً. لم أنتظر ظهور المقيمين. صاروا سبب فنائنا. ناضلت فوراً من أجل طردهم أو تصفيتهم. ليس قتلهم قطعاً. تفوهت بذلك تحت تأثير الغضب. علينا منعهم على الأقل. طالبت حالاً بأن يُنصّ على مطالعة الكتب ضمن القانون الداخلي للمكتبة، وأضفت أربع نقاط في الواقع:

1. كل شخص داخل قاعة القراءة مطالبٌ بتناول كتاب وقراءته.

2. كل شخص يرفض استعارة كتاب، ولا يهتم سوى بحاسوبه، سيتم طرده من طرف رجال الأمن.

3. كلّ شخص يطرده رجال الأمن، تُسحب منه بطاقة القارئ مؤقتاً لمدة أسبوع، ويُحرم من دخول قاعة القراءة مدةً مماثلة.

4. بعد ثلاث إنذارات، يُشطب المخطئ نهائياً من المكتبة الكبرى.

الاعتماد على قانون داخلي صارم، واتخاذ خطوات زجرية، والتهديد والعقاب، كلّ هذا أمر مؤسف، لكنه ناجع. بالنسبة إلي، كان الأمر أشبه بحرب بين الكتب والأشخاص غير القارئين. كنت عازماً على خوضها، ولم أكن أخشى شيئاً. كنت مهيّئاً للموت وللقتل من أجل هاته القضية.

أدركت بسرعة أن أمينات المكتبة لم يكنَّ جاهزات للموت من أجل الكتب. رغم كلّ التزامهنّ لمصلحة الكتب، لم يكنَّ ليذهبنَ كلّ هذا البعد. كان الأمر مبالغاً فيه، ولم يكن يطابق تصورهنّ لمهنتهنّ. قالت أمينة المكتبة الخضراء إنه لا يسعهنّ طرد أيّ شخص من المكتبة بتعلّة أنه لا يقرأ، وشرحت لي في هدوء:

- حين ينخرط أحد الأشخاص، لا ينبغي أن تُسحب منه بطاقته في ما بعد إلا حين ارتكابه عنفاً أو حادثاً عالي الخطورة، أو اعتدائه على المكتبة، أو ارتكابه سرقة موصوفة. يفِدُ الناس على المكتبة لعدة أسباب، لكنها تبقى أسبابهم الخاصة، ولا حقّ لأحد في الاعتراض عليها، وطالما لا يزعجون الآخرين فإنهم يفعلون ما يشاؤون في قاعة المطالعة. إنه مبدأ قديم لا يمكننا الرجوع عنه. لا تقلق، إذاً، ودع أولئك المقيمين مع هواتفهم وحواسيبهم. إنه أمر عابر. يوماً ما سيملّون،

ويعودون إلى الكتب القديمة التي نحبّ... ثم عليك ألا تهوّل الأمر. لا يسعنا القول إن قاعة القراءة خالية تماماً. دعني أُشِر إلى أننا نواصل استقبال المهووسين بالقراءة. عددهم قليل. اتفقنا، لكن ذلك أفضل من لا شيء. لا يجولنَّ في ذهنك أنّ ثمة قراء حقيقيين (أولئك الهادئين المنعزلين) من ناحية، ومحتالين (صاخبين متناثرين لا يهدؤون) من ناحية أخرى. الأمر أشدّ تعقيداً. الكتب تتغيّر، والمكتبات أيضاً، ولا يوجد سبب يمنع القراء من التغيّر. أوافقك تماماً في أننا نعيش زمناً صعباً، لكنني أرى أنه لن يدوم طويلاً. يوماً ما سيحلّ قرّاء جدد (نطقَت هذه الكلمة بصوت عذب، وهي تربتُ على غلافي كأنها تقول لي: لا تقلق، ستعود الأمور إلى نصابها).

أجبتها دون اقتناع:

- أنت التي تقولين هذا؟ سنرى.

انتظرتُ من ثَمَّ عودةَ القرّاء الحقيقين. كنت مرتاباً.

لم يطوّر الربيع من عدد الحضور، ولم تحصل هذه السنة تلك الطفرة المعتادة التي كان وراءها خوف الطلاب من اقتراب موعد الاختبارات. لقد فضّلوا المراجعة في بيوتهم، بعين على دروسهم وأخرى على بثّ مقابلات دورة شهيرة لكرة المضرب. لم يأبهوا لاهتمامهم بتتويج رياضي إسباني بالجائزة على حساب تركهم دراسة ثلاث مقالات كتبها شيخ نمساوي عن نظرية الجنسانية.

سمحت فترةُ الصيف باستقبال عدد أكبر من الناس. لم يكن السبب رغبة جامحة منهم في القراءة، بل لأن المكتبة، التي تم إدراجها في قائمة التراث العالمي، أصبحت تستقبل سيّاحاً. كانت فرصة لإحياء علاقة المكتبة بالجمهور على حد تعبير قسم الاتصال بها.

كان السياح منبهرين أمام ثراء تلك المجموعات والكنوز والمعرفة والتراث. 14 مليوناً من الكتب قد تستغرق قراءتها 150000 سنة. أتدركون ذلك؟ أعجبت الزيارة السيّاح دون أن يجشموا أنفسهم عناء قراءة كتب الشعر العالمي، وأنثروبولوجيا الأديان، أو أركيولوجيا الهندسة.

في نهاية الزيارة المدفوعة الأجر، غنم كلّ زائر بطاقةَ قارئ من الجيل الجديد. كانت فكرة قسم الاتصال: استغلال تلك الزيارات لإطلاق بطاقات مخصصة للسياح. كانت البطاقات تسمح باستعارة محدودة من الكتب (زوج من الكتب شهرياً) إضافة إلى إمكانية تزويق البطاقة بأربع صور حسب الاختيار.

كانت البطاقة المسندة إلى السياح أقلّ تشدداً من البطاقة الممنوحة إلى الباحثين. وقد انتقد البعض شدة أناقتها على حساب فائدتها. وتمّت إجابتهم بأن الولوج إلى المعرفة لا تلزمه بطاقة تعيسة. عليّ أن أعترف بأن النتائج المرجوة من تلك البطاقات كانت هزيلة تماماً. لم يستعملها زوار الصيف بتاتاً، ليس لاستعارة الكتب على أية حال. لقد احتفظوا بها تذكارَ سفرٍ يرونه كلّ يوم قبل وجباتهم وحتى أثناءها دليلاً على ذكريات لا تُمحى؛ وذلك لأن قسم الاتصال قد صمّم البطاقة لتوضع على محمل مغناطيسي يمكنهم دوماً تعليقه على باب الثلاجة في صورة عدم استخدامه. سيذكرهم دوماً بوجود المكتبة الكبرى. بطاقة قارئ تزيّن الثلاجة: عبقرية التسويق في مجال التصرف في المكتبات دون مزيد من القراء بطبيعة الحال.

أثناء الليل، ولجت مجموعة من الأشباح الدور تحت الأرضيّ الثالث للمكتبة. وحين بلغت المستودعات، قامت باستخراج الكتب القليلة الإعارة (أقل من خمس استعارات أثناء الشهرين الماضيين) لتوضع في صناديق. في الواقع، كانت الأشباح مجموعة من المتعاقدين المتنكرين تمّ انتدابهم ودفع مستحقاتهم بالقطعة: كل كتاب قليل الإعارة يُبعد من الرفوف يأخذون لقاءه مبلغاً مالياً. كانوا متحمسين، وواعين، ومنهجيين رغم راتبهم المزري. لم يمنعهم راتبهم القليل عن العمل، وأظهروا نجاعة كبيرة.

تم مسح الكتب القليلة الإعارة من الكتالوجات، وأُرسلت إلى مكان لا رجعة منه: المدكّ.

حين طلبت تفسيراً، نفخ مدير المجموعات أوداجه، وزعم أنني لم أفهم الوضعية. حتى حين اعترف بأنّ العمال الوقتيين قد تمّ انتدابهم لاقتلاع الأعشاب الطفيلية، نفى حقيقة وجودهم من أجل اغتيال الكتب، وقال إن التهمة التي أطلقتها مجرّد أكذوبة، وهددني بالشكوى إلى القضاء لو أعدت الكرّة. وأكّد قائلاً:

- لا يتعلق الأمر باغتيال الكتب، بل بتجديد المجموعات. آسفٌ لقولي هذا، لكنك لا تختار ألفاظك. معجمك خاطئ تماماً.

أجبته:

- أنا أستعمل الكلمات المناسبة. لقد وضعتَ خطة لإقصاء الكتب. لا يسعك قول العكس. بالنسبة إلي، أنت قاتل.

قهقه مدير المجموعات، وفهمت أنه سيقدّم لي درساً:

- انظر، الإقصاء ليس هدفنا، وإنما تثمين مجموعاتنا. لمّا كنّا مكتبةً تراثية، فإنه يتوجب علينا الحفاظ على تراثنا وليس إعدامه. لسنا همجاً، ونشتغل حسب معايير فكرية وعلمية يعلمها الجميع. إن عملنا واضح وشفاف، وتخضع سياستنا إلى ميثاق أدعوك للاطلاع عليه. عموماً، نتجه نحو توسيع مجموعاتنا حتى لو أقصينا بعض الكتب. إذاً، حصلت بعض الخسائر، لكن بصورة طفيفة. فلتعلم أنّ الكتب ذات الإعارة القليلة لا تذهب إلى المدكّ، بل توضع في مستودع، أو يُعاد توزيعها في مكتبات متخصصة. وفي كل الحالات تحفظ الكتب، وتنتظر من يطلبها.

محال الحديث مع شخص مثله لا تهمّه الحقيقة. الشيء الوحيد الذي يهمه هو أن يكون دوماً على حق. تركته يتحدث دون أن أصدق حرفاً مما قاله. كان يتحايل على الحقيقة، وفي أعماقه، كان يتمنى أن يتخلص من الضعفاء منا معشر الكتب. كنت أعلم أنها لم تكن سوى البداية. يهاجمون الكتب التي لم تُقرأ منذ عشر سنوات أولاً، ثم ينقضّون على البقية. والكتب الفتية مثلي كانت محكومة بالموت.

كان عليّ فعل شيء حيال الأمر. خمنت أنَّ من الأفضل بعثرة نظام المكتبة. تحدّثت في الأمر مع كتب مقرّبة مني، وقد وجدت كلها الفكرة متميزة، ووافقت على إنجازها. كل الكتب، التي كانت تشعر بالخطر، تحولت من رفّ إلى آخر. لم يضع أيّ منها، لكنها صارت ببساطة خارجَ التصنيف. وكان ذلك مصدر إزعاج صغير منع العَمَلة الوقتيين من القبض على الكتب ذات الإعارة القليلة، فلم تكن أيّ منها توجد حيث ينبغي لها أن تكون.

للأسف، عطّل الأمر مصالح القراء في المكتبة، ولاسيما أولئك المهووسين بالقراءة، الذين لا يسمعون سوى: اختفى، حين يطلبون أحد العناوين. كنا ندرك أننا نعرّض المكتبة إلى الخطر. ليس أسوأ من الفوضى في المكتبة، لكن ليس في اليد حيلة.

تصدياً لحركتنا، استعان العَمَلة الوقتيون بعَمَلة المخازن، الذين منحتهم الإدارة علاوة استثنائية من أجل عملهم الإضافي. وهكذا تم العثور على الكتب التي غيّرت مكانها.

بحثنا عن حيلة أخرى للمقاومة، وراودتني فكرة المرور إلى الدرجة القصوى من الفوضى، الأشد راديكالية والأكثر تعقيداً: سنغيّر أبراج المكتبة هذه المرّة.

وهكذا تحوّلت كتب برج الروايات إلى برج التراث؛ وذهبت الكتب الخارجة عن التصنيف إلى برج العلوم والإنسانيات، وامتزجت المجالات أحدها بالآخر، فاقترب الفن من العلوم الاجتماعية، واحتك التاريخ بالأدب الحديث، والتصق الشعر التجريبي بالاقتصاد السياسي.

لأن المدير ما زال يرفض الإنصات إلي، غيّرت الكتالوجات، واستمتعت، بمساعدة إحدى أمينات المكتبة، بإدخال موضوعات مجهولة، وابتكرت أنواعاً وتصنيفات.

فصار تصنيف روايات حديثة يتفرع إلى عدة تصنيفات:

كتب على الحاسوب مباشرة

كتب بخط اليد

يحتوي على هوامش

يحتوي على كلمة أحمر وأزرق في عنوانه

يحتوي نصه على كلمات أصفر وأبيض.

جنسه مريب

صاخب

مسالم

دافئ

مزعج

سيتم تجاهله

ستتناقله الأيدي

أصابت المكتبة فوضى تامة، وتذمر المهووسون بالقراءة؛ لأنه صار العثور على الكتب ضرباً من المستحيل. وصل الخبر إلى وزيرة المعرفة ونشر العلوم التي خاطبت مدير المجموعات بنبرة غاضبة:

- انظر. لا يمكن لهذا الوضع أن يطول أكثر. أعد النظام إلى المكتبة؛ لبِّ طلبات القرّاء، واطرد أولئك العَمَلة العرضيين، وإلا طردتك بنفسي. وانشر هذا البلاغ فوراً.

وعياً منها بالمخاطر، التي تتهدّد المؤسسة، قرّرت إدارة المكتبة الكبرى، باتفاق مع مجلس الإدارة والهيئة العلمية، وبإرشاد من وزيرة المعرفة ونشر العلوم، انتهاج سياسة دعم الكتاب. ويترتب عليه إجبارية قراءة كتاب أو دورية بالنسبة إلى كلّ مستخدم يزور قاعة المطالعة. وتلتزم الإدارة بالتصرف بما يطابق معايير مؤسسة قراءة عمومية عصرية: تحقيق تطلّعات القرّاء الجدد، مع تثمين وتطوير مواردها الأساسية.

رغم كل التعليمات، لم يمتثل المقيمون لإجبارية قراءة مواد مطبوعة؛ فتم طردهم من المكتبة. وبذلك صارت المكتبة خالية. عرفت المكتبة هبوطاً في نسب الاقبال: - % 90 مقارنة بالفترة نفسها من السنة الماضية. القاعة خالية تماماً. ألا تصدّقني؟ ارفع رأسك ولاحظ بنفسك.

3
أمينة المكتبة الحمراء

كنت بصدد القراءة في قاعة الإعارة. كنت أمسك الكتاب حين شعرت أن حرارته ارتفعت كثيراً. صار ملتهباً قبل أن أجد الوقت لأقول: «عجيب، هذا الكتاب ساخن»، فاضطررت إلى تركه. سقط من علو عشرين سنتيمتراً على لوح من الزجاج والألومنيوم، وخشيت للحظة أن يُصاب بأذى. ناديته، فاستجاب حين سمع اسمه. فحصته، فألفيته سليماً. كان هذا الكتاب الفتيّ الغاضب أوفر قوّة مما ظننت.

أشرت عليه بالراحة، وأغلقت صفحاته برفق.

ظللتُ جالسة لفترة طويلة، فرمتُ المشي. وقمتُ لأتجول في أرجاء القاعة.

هبت الريح خلف الواجهة الزجاجية، وتحركت الغيوم بسرعة ملحوظة، وتخللت الشمسُ غيمتين، فغمرت أشعّتها قاعة المطالعة التي بدت لي أكثر اتساعاً من العادة.

بدت الجدران كأنما تمّ دفعها، والمكاتب أكثر اتساعاً، وتم تكبير الرفوف. لكن لا يسعنا الاستسلام إلى المغالطة، فذلك الانطباع كان مردّه غياب الجمهور.

دفعاً للشعور بالفراغ، تمّ تقسيم الفضاء إلى ثمانية مربّعات متوسّطة الأبعاد. كان أثراً لمصمّم زار قاعة المطالعة قبل بضعة أسابيع. قال عند تسليم تقريره إن من الأفضل توخّي التكثيف، الأمر الذي بدا متناغماً مع السياق، ثم أضاف كلمة تنسيب. بدا للمصمم أنه يمسك بزمام المبادرة؛ لأنه أصرّ على ضرورة تنسيب الفضاء. أُعجبت الإدارة بهذا المصطلح أيّما إعجاب، فقرّرت منحه كلّ الموارد لينفّذ مشروعه.

حين تمّ تنسيب الفضاء، وُضِعت لافتة تعلم القراء أنّهم مدعوون ليشغلوا المربّعات القريبة من المدخل الرئيسي، وتمّ إعلامهم أنه لا يجدر بهم الولوج إلى عمق القاعة.

عدت إلى مكاني في قاعة الإعارة لأجد الكتاب الفتيّ الغاضب نائماً على الطاولة. بدا من غلافه الرصين المحايد أنه ينعم بالهدوء، كأنه أحد الكتب الصغيرة التي تداعب قارئها. لا شيء كان ينبئ بغضبه وقلقه، ووقوعه فريسة للكوابيس المزعجة. شعرت بشفقة تجاهه، فانحنيت لأجده يتنفّس بلطف. همست قائلاً:

- إنّه أنا. أمينة المكتبة الحمراء. أودّ أن أخبرك أمراً. أرى أنك كتاب جيّد. لقد تعلّمت العديد من الأشياء بفضلك. سأحدّث أصدقائي بشأنك. سأقول لهم: اقرؤوه، ولن تندموا.

لمست غلافه مجدداً. كانت حرارته قد انخفضت. حين لاحظت تحسّن حالته، أعدت فتحه.

في تلك اللحظة كانت الشخصيات تطأ سجّاداً مخملياً. أتراها تحاول الدخول دون أن يلحظها موظف الاستقبال؟ هذا ما سنكتشفه قريباً.

أثناء قراءتي، تناهت إلى سمعي أصواتُ خطواتٍ جاهدَ السجّادُ لإخمادها. بدا أنني عرفتُ فيها أصواتَ أحذية معيّنة، ولاسيما ذلك الصوت الذي يحدثه الجلد حين تنطلق القدم قُدماً. لم يكن لديّ شكّ في أن القراء بدؤوا يدخلون القاعة خطوةً خطوة، ويقتربون منّي. حسب علمي، لا يوجد خمسون قارئاً ينتعل هذا النوع من الأحذية. لا بدّ من أنهم آخر نوع من مرتادي المكتبة، آخر أوفيائها، أولئك المهووسين.

المهووسون، أو بعبارة أخرى المتعلّمون، والعلماء، والأكاديميون، الذين يمتهنون البحث والتدريس، ويألفون مؤسسات المعرفة، أعضاء المكتبة المرموقون الذين يستحقون أوسمة لمواظبتهم على الحضور منذ أمدٍ بعيد حتى بدوا كأنهم أمضوا حيواتهم هناك. فعلى سبيل المزاح، كان يُقال إنهم جزء من الأثاث. لا يجب أن تغالطنا عبارة جزء من الأثاث. لطالما كان المهووسون نشطين، فيستعيرون الكتب، ويقترحون عناوين لاقتنائها، ويهدون إصداراتهم، ويساهمون في حياة المؤسسة. علينا القول إن المكتبة مورد أساسي لكي يقوموا بأبحاثهم، فهم يستعينون بها لإثراء تدريسهم، وتبادل الحديث مع زملائهم.

كان ثمة أمر يثير استغرابي. يصل المهووسون عادةً عند نهاية الصباح، نادراً قبل الحادية عشرة، وأحياناً بين الزوال والساعة الثانية، وحتى في منتصف الظهيرة. لأوّل مرّة في مسيرتهم، يحلّ ركبهم باكراً في الصباح.

- سيّدتي؟

سيّدتي؟ أعرف هذا الصوت. إنه صوت الشغل؛ الشغل يناديني بهذا الصوت العذب والحازم في آن. إنه يذكّرني بواجباتي، وذلك يعني أنَّ عليّ القيام بالمهمات المنوطة بعهدتي لقاء راتبي ودرجتي الاجتماعية. إنه لا يقول لي ذلك مباشرة، لكنه يرجوني أن أضع كتابي جانباً، وأعود فوراً إلى عملي. لم أشأ الاستسلام له، فقد جعلني الكتاب الفتيّ الغاضب مقاتلة شرسة.

- من فضلك يا سيّدتي.

لأن الشغل كان يلحّ، أعلنت، دون أن أرفع عينيّ عن الكتاب، أنني أقوم بواجبي بكلّ التزام حتى يحين تقاعدي، وأضفت أن سجلّي في العمل حافل جداً، فقد نلت رضا رؤسائي في العمل منذ بداية مسيرتي المهنية. يمكنه التثبّت من الأمر. لم تكن كل الترقيات التي نلتها مجانية. ما زالت أمامي ثلاثون سنة من العمل قبل أن أنال تقاعدي. أيعلم ما يمثّله البقاء مئة وعشرين فصلاً في قاعة مطالعة؟ هنا، طالبت بدقيقة حرّية إضافية تمكّنني من إنهاء الفصل الذي كنت بصدد قراءته، لكن الشغل عاتبني قائلاً:

- -لا تسيئي فهمي يا سيّدتي.

إن دقيقة واحدة للقراءة طوال ثلاثين سنة بدوام كامل لأمرٌ تافه حقاً، إنها لا تُحتسب أصلا. بعد ذلك، سأستقبل أولئك المهووسين بالقراءة. سأجيب كلّ تطلّعاتهم. سأساعدهم بشأن أبحاثهم لو كان ذلك مطلبهم. سأكتب لهم قائمات مراجعهم لو يسرّهم ذلك. سأبحث عن مقالات ضمن الدوريات بنفسي لو يدخل ذلك الفرح إلى قلوبهم. سيدركون ما معنى أن تتعامل مع أمينة كتب حمراء.

- سيّدتي، لسنا في عجلة من أمرنا. في وسعنا الانتظار. أكملي مطالعة الفصل.

- لحظة واحدة وسأكون رهن إشارتكم.

وهكذا وضعت كتابي جانباً، ونهضت.

فوجئت بوجود ثلّة من الغرباء قبالتي. عشرة شبان ينتعلون أحذية جلدية، لكن لباسهم كان غريباً. رغم أن القاعة مدفّأة، لم يتجشموا عناء خلع معاطفهم الثقيلة، ورضوا بسحب أيديهم من جيوبهم لكي يحسروا إلى الخلف قلنسوات وضعوا أسفلها أنواعاً غريبة من القبعات التي تحمل شعارات مبهمة بدوا معها كأنّهم تسلموا أموالاً من أجل إشهار أنواع غريبة من المشروبات من مجرّة أخرى.

لم يبدُ عليهم أنهم أتوا بسبب سوء المناخ، والهواء البارد، أو لأن الأيام القصيرة تتطلّب أنشطة في فضاءات مغلقة معتدلة المناخ. الظاهر للعيان أنهم ولجوا المكتبة على أمل أن يصبحوا قرّاء. كانوا يبدون واثقين، وجاهزين، وعازمين على الانخراط في المكتبة. بحركة واثقة، أخرجوا استمارات مملوءة من محفظاتهم، وأمدّوني ببطاقات هويّاتهم. كلّ الأوراق اللازمة كانت هنا، لا ينقصها شيء، والملف الإداري كاملاً من البداية. أطرف ما في الأمر أنهم أمدّوني بعقد.

- أيّ عقد؟

كانت أوّل مرّة في مسيرتي المهنية أرى فيها عقود قرّاء. اعتقدت بدايةً أنها مزوّرة، لكنني فحصتها عن قرب، واتصلت بالمدير للتثبت من الأمر: لقد حصل هؤلاء الشبان على منصب قرّاء متعاقدين.

أجبتهم:

- حسناً، صرنا زملاء بطريقة أو بأخرى. مرحباً بكم.

بعد أن سجّلوا انخراطهم، راح القراء المتعاقدون يبحثون عن مقاعد شاغرة، فوجدوها بكلّ يسر. ربطوا حواسيبهم بشبكة المكتبة الكبرى، وطلبوا كتباً. في انتظار الكتب، ذهبوا إلى الكافيتريا، واحتسوا بعض القهوة والشاي. بعد عشر دقائق، عادوا ليسحبوا كتبهم من مكتب الإعارة، واحتلوا مقاعدهم، وانهمكوا في العمل.

لاحقاً، حلّت موجة ثانية منهم، تتبعها ثالثة ورابعة وخامسة دون هوادة.

تشكّل صفّ انتظار في القاعة، وهو أمرٌ لم يكن ليصدّق طوال الأشهر الماضية.

بعد الافتتاح بساعتين، صارت ثلاثة أرباع القاعة مليئة بالمتعاقدين.

بعد ساعة أخرى، لم يكن فيها مكان شاغر واحد.

بعد الظهيرة بنصف الساعة، حلّ ركب المهووسين بالقراءة.

كانوا تائهين وسط أفكارهم، فمنهم من ألقى عليّ التحية، ومنهم من عدّ هذه الحركة بلا فائدة، ومنهم أيضاً من لم يتساءل، وبينهم من لم يفهم ما الذي كان يحدث بالضبط. علاوة على تيههم وبطئهم، كان المهووسون ضعيفي البصر؛ لذلك طال الوقت قبل أن يلفَوا القاعة مليئة تماماً هذا الصباح.

سألني أحدهم مندهشاً:

- القاعة مكتظة؟ ماذا يعني ذلك؟

من تقاسيم سحنته، أدركت أنه لم يسمع هذه الجملة في حياته قطّ. في الواقع، كان المقيمون قد رحلوا، وصارت القاعة ملكاً للمهووسين، الذين أخذوا راحتهم فيها كأنهم في بيوتهم. كانوا واثقين من الحصول على مقاعد حال وصولهم. كان الأمر ملائماً بالنسبة إليهم؛ لأنهم كانوا يصِلون متى شاؤوا، ولم تكن لهم مواعيد محددة. كانوا يفدون للبحث عن وثائق تهمهم، ليلتقوا زملاءهم، وليتناقشوا مع طلبتهم. في الماضي، في الأيام التي تكتظّ فيها القاعة، شهدت نهوض القراء الشباب من مقاعدهم ليتخذها أحد المهووسين مجلساً. لم تكن سطوتهم فكرية فحسب، بل صارت أيضاً نوعاً من التملّك.

أضاف كدليل على عدم استيعابه الأمر:

- مليئة؟ من يشغلها؟

- إن طاقة استيعاب القاعة محدودة. ارتفع عدد المنخرطين. من يصل أوّلاً يجلس أوّلاً. لكي تحصل على مقعد، عليك الوصول قبل الساعة التاسعة والنصف كأقصى تقدير.

من الغد أتى المهووسون بداية الظهيرة.

في الأيام التالية، فعلوا الشيء نفسه؛ الحادية عشرة صباحاً، الواحدة ظهراً. لم يكن في اليد حيلة. لطالما كان ذلك موعدهم. لا يسعنا تغيير عادات القرّاء.

قال لي أحدهم بعد أن عيل صبري:

- اتفقنا يا سيدتي. لقد نسيت المعلومة. سأحفظها هذه المرة، وأخبر زملائي أنه يجدر بنا المجيء باكراً.

لم يغيّروا عاداتهم، وواصلوا المجيء متى عنّ لهم ذلك. لم أتوقّف عن تذكيرهم، وشرح الموقف لهم مئة مرّة على الأقل كأنني أخاطب أطفالاً. لم أعد أتحملهم.

كنت أجيبهم بتملّق:

- أنا آسفة جداً.

قال عميدهم غاضباً:

- لا تقولي إنك آسفة. لم يعد لنا مكان هنا. لقد فهمنا الأمر برمّته. أنت تطردينا بكل بساطة.

لم يجدوا مقاعد شاغرة، فعادوا إلى بيوتهم يجرون أذيال الخيبة. كانوا يتذمّرون، ويعبرون عن استيائهم، الذي تحوّل إلى حزن عميق؛ لأنهم طُردوا من المكان الذي ألفوه منذ زمن بعيد حتى خالوا أنفسهم جزءاً من قطع أثاثه. لقد ضاع منهم جزء من ذاكرتهم الثقافية، أو جزء من حيواتهم.

كانت إطلالات القرّاء المتعاقدين عجيبة. في البداية لم ألحظ أيّ شيء يجمع بينهم؛ لأنهم توافدوا على شكل مجموعات صغيرة مستقلة. لقد أضفوا على قاعة القراءة لوناً طريفاً، وفرضوا إيقاعهم وأساليبهم.

كانت لديهم تقليعات جديدة، فقد جمعوا بين سترات تقليدية وسراويل عجيبة كالتي يرتديها الجزّارون، ولبسوا معاطف كبيرة من الجلد مع تبّان الملاكمين.

لم يكن لديهم ضير في جمع أسلوبين مختلفين: الأكاديمي والرياضي، كأنهم كانوا يعدّون القراءة علماً وفناً ورياضة في آن، نشاطاً فكرياً وتحدّياً بدنياً في الوقت نفسه.

وقد أعاد بعض المتعاقدين إلى الأشياء المنسية ألقها مثل السترات اللماعة، والسترات ذات الأكمام الغريبة، والعديد من قطع الثياب التي لم أتطلّع إلى عودتها على أجساد القرّاء خاصةً.

على خلاف العلماء والمهووسين بالقراءة، الذين لا يضعون من الملابس سوى الجديد منها، إن المتعاقدين كانوا يرتدون سترات ممزّقة وقمصاناً دون أزرار.

كانوا يمزجون بين لباس العلماء التقليدي (أحذية جلدية، سترات مخملية...) وقطع تمّ العثور عليها مصادفة، أو تم اقتناؤها من سوق الملابس المستعمَلة، وكانت ملابسهم تبدو غير مكتملة الحياكة.

كانت لديهم طريقة خاصة بهم لانتعال الأحذية. لم تكن أقدامهم تدخل أحذيتهم بالكامل؛ لأنها لم تكن على مقاسهم ببساطة. لم أكن أصدق أن المتعاقدين قد اقتنوا أحذيتهم تلك. لا أحد، حسب رأيي، يشتري أحذية ليست على مقاسه. خمّنت أن المتعاقدين قد سرقوا لباس المهووسين مثل القراصنة، الذين يمزجون بين السترات الأنيقة والأسمال البالية في آن. أكان المتعاقدون يحاولون تمرير رسالة ما؟ أتراهم نسخة مشوّهة من المهووسين؟

كان المهووسون بالقراءة يرتدون نظارات طبية، لكن المتعاقدين صاروا يضعون سماعات خفيفة، وآخرون منهم يفضلون وضع سماعات ذات نهايات من السيليكون تسكن طبلات آذانهم لكي ينصتوا إلى ما يشاؤون دون تبديد هدوء قاعة القراءة.

بخوذاتهم وكل الصخب في آذانهم، لم يكونوا يسمعون شيئاً، ولا يتحدثون، لكن ذلك لم يمنعهم من وضع نظارات ذكية ذات إطارات من التيتانيوم تحوي شاشات صغيرة في أركانها تسجّل وتوثّق كلّ شيء مرئي حسب الطلب، وترسله إلى قرص حافظ قصيّ.

لاكتمال صورة المتعاقدين، عليّ أن أضيف تلك الأوعية الحافظة المملوءة قهوة وشاياً، والتي يحتسون منها جرعات ساخنة تمنحهم طاقة وحيوية. كانوا أيضاً يأكلون بعض الفواكه الجافة من حين إلى آخر، أو بعض الموز والقشدة. كانوا يتناولون وجباتهم مباشرة في أوعية بلاستيكية حافظة. كانوا يضاهون الرياضيين في حمياتهم الغذائية، كأنهم كانوا على أهبة للقيام بجهد يستوجب مخزوناً هائلاً من الطاقة.

لم يسعني سوى أن أستنتج أن كلّ ما في بطونهم يمنحهم طاقة تعينهم على إيقاع متواصل من العمل طوال اليوم مثل عدّائي المسافات الطويلة، وأنهم يتهيؤون لإقامة طويلة داخل جدران قاعة القراءة.

كان إيقاع عمل المتقاعدين يضاهي مظهرهم غرابة. كان الوقت ثميناً جداً بالنسبة إليهم، وكانوا مضطرين إلى تحويله إلى قراءة. كان النصيب الأدنى منها عشرة كتب في اليوم للشخص الواحد سبعة أيام في الأسبوع.

لم أعرف في مسيرتي قرّاء بهاته السرعة. عرفت أنواعاً غريبة من القراء من قبل، المخبولين، سريعي الغضب، أولئك الذين يزعمون معرفة كلّ شيء، العلماء الذين يشبهون موسوعات تمشي على قدمين، لكنني لم أرَ مثل هؤلاء المتعاقدين. كانوا يقرؤون بنهم في سرعة مذهلة. بينما كان الآخرون يستغرقون أياماً، كانوا يغلقون قاموساً ضخماً بعد مضي سويعات قائلين:

- لقد قرأناه. لنمرّ إلى الآتي.

كانوا يقرؤون مجلّدات ضخمة، ويفترسون قواميس، ويلتهمون موسوعات، ويبتلعون أطناناً من الدوريات، وأكواماً من الكتالوجات، وأميالاً من الفهارس.

كانوا قرّاء حازمين وسريعين، يقلّبون الصفحات بإيقاع مدروس. لم تكن القراءة تثير أيّ عاطفة لديهم: وجوه باردة القسمات، لا أثر للضحك أو الدموع فيها، دون أيّ علامة قلق أو انزعاج، ولا حتى أدنى إشارة للحماسة والمتعة.

كانوا بنظاراتهم الذكية يشبهون ماسحاً ضوئياً بصدد تصوير إحدى الوثائق. كانت أعينهم تلتمع في حضرة كتاب مفتوح، وما إن يُغلق الكتاب حتى يخمد بريقها. كانوا يغيرون إضاءة الصفحات بواسطة نظام ما في نظاراتهم، ويطورون جودة القراءة بتعميق فارق التباين بين الصفَحات البيضاء وبين الحروف المطبوعة.

كانوا يهزّون رؤوسهم ويرفعون أياديهم كأنّهم يرقصون استجابة للسماعات في آذانهم. إلامَ كانوا ينصتون؟ أإلى صوت الكتب أم إلى تلك الأصوات الآتية من الخارج، كصوت المطر والرياح وضجيج السيارات وما إليه؟

كان الكمّ بطل اللحظة. وكان عليهم قراءة الكثير من الكتب بسرعة فائقة، مهما كان محتواها. سواء تم العثور على الكتب عبر البحث حسب الحروف في فهارس أم تم اقتراحها عليهم، فالأمران سيّان. فيجد المرء في يده معجم مرادفات كما كان يستطيع أن يعثر على موسوعة عن الأديان، فلا شيء يدل على أن الكتاب الماثل بين يديه يروي ظمأ إلى

المعرفة، أو يحقق متعة ما. كانوا ينتقلون من كتاب إلى آخر بلا مبالاة تامة، كأنهم يواجهون تحدياً رياضياً. كان يُهيَّأ إليّ أنني أشهد منافسة لا يعرف قواعدها سوى المتسابقين.

كان عمال المستودعات أوّل من اكتشف طبيعة أولئك القراء، الذين أرسوا تنظيماً حازماً شبه عسكري. بإشرافهم على توفير الكتب لهم، لاحظوا عدم طلب أيّ عنوان مرّتين، رغم عدد الطلبات المرتفع. كان ذلك يعني أن المتعاقدين يشتغلون بتنسيق تامّ بروح فريق بهدف الاطلاع على كلّ الكتب المطبوعة، واستعراض كلّ أنواع المعرفة.

صار من الواضح أن المتعاقدين اقتسموا المجموعات في ما بينهم؛ لقد شكّلوا فرقاً لتهتمّ بجزء من الكتب.

كان الفريق الذي يحوي أكبر عدد من القرّاء يُكنّى بالجماعة

كانت الجماعة تهتم بالأدب أساساً.

تم تقسيم جماعة الأدب إلى ستّ مجموعات صغيرة:

- اطّلعت المجموعة الصغيرة الأولى على الروايات الوطنية، والمحلية، والقروية، والحضرية، وعديمة الجنسية.

- اهتمّت المجموعة الصغيرة الثانية بالروايات التي تُقرأ في القطارات أو في البيت على مقعد مريح، أو في سرير في أحد المستشفيات.

- اشتغلت الثالثة على الروايات المسالمة؛ تلك التي تشعرك بالراحة، دون نسيان الروايات الموغلة في اللطف.

- مسحت الرابعة الروايات التي تتناول الماضي، وتلك التي تهتم بالحاضر، وروايات المستقبل.

- تولّت المجموعة الصغيرة الخامسة أمر الملحمات الرياضية، والحكايات التكنولوجية، وروايات التاريخ البديل، وروايات المعجبين، التي تضم رجال بوليس ومصاصي دماء.

- تجشّمت السادسة عناء قراءة الروايات المزاجية، الغاضبة والمحنقة.

- غطست السابعة داخل الروايات الضخمة؛ لفظ عام يحيل إلى الروايات الكبيرة، البدينة، القوية، الثرثارة، السير ذاتية، الكاملة، روايات شجرة العائلة، السلاسل غير المكتملة.

- استطلعت الثامنة مجالي الشعر والغناء.

- عالجت التاسعة مسألة النظرية الأدبية.

- اهتمت العاشرة أخيراً بالكتب التي شذّت عن الأنواع التسعة السابقة، وأغلبها كتب غير مصنّفة، تأبى التصنيف: فصيلة كتب لا أب لها، أو كتب نظريات هجينة.

بدا لي أن أعضاء الجماعة أصابهم الإرهاق جرّاء معالجة هذا الكمّ الهائل. لم يظنوا أنفسهم قادرين على الإتيان على عدد الروايات المهول الذي تضمّه المكتبة. كان خطأ نسبة الولادات المرتفع في مجال الرواية. ما إن تنتهي من رواية حتى تولد عشر روايات أخرى. ذلك نتاج ظاهرة «صدر حديثاً»، التي تتحكّم في الإنتاج في هذا الميدان. علاوة على ولادة الروايات يومياً، كان ثمة كتب تُصنّف ضمن الروايات بحجّة قدرتها على استعادة القراء، الذين ابتعدوا عن الرواية متعلّلين بنهاية زمنها، وعدم قدرتها على مواكبة الأحداث (زعموا أن تلك الكتب

تخدم مصلحة الرواية). باختصار، شكّلت الروايات، برفقة الكتب التي تدور في فلك الرواية، عدداً مهولاً للمعالجة، وبدت بئراً بلا قرار.

تمّ إنجاز العمل رغم ذلك، وحتى لو بدا أن ليس كلّ الروايات تُقرأ بوصفها روايات، فقد تمّ الاطلاع عليها جميعاً. لا يسعني سوى أن أحيي الشجاعة والمثابرة التي تحلّت بها جماعة قرّاء الأدب.

كان الاشتغال على العلوم والإنسانيات منوطاً بعهدة فريق آخر يسمّى القسم.

أخذ القسم على عاتقه مهمّة تجزئة المجموعات ليس حسب المجالات، بل حسب موضوعات البحث الدارجة.

بلغ عدد الأقسام الفرعية سبعةً:

- قرأ القسم الفرعي الأول كل ما يتعلق بموضوع المجتمع الرقمي.
- اهتم القسم الفرعي الثاني بقضية الأوطان والحركات وغياب المساواة.
- انكب الثالث على موضوع النزاعات والتنافس.
- استعرض الرابع كلّ ما كتب بشأن الأخلاق وعالم المال.
- عالج الخامس قضية العنف في الشغل بكلّ جدّية.
- التهم السادس كل ما يتعلّق بالصحة والخلود.
- أنهى القسم السابع العمل بالاطلاع على كلِّ كتابٍ يتناول الترفيه الخلّاق والمتعة الشخصية.

نتج عن التنظيم المحكم للقسم وأقسامه الفرعية عملٌ ناجع تماماً. أهنّئ قسم العلوم والإنسانيات على هذا العمل الدقيق.

لم تكن المجموعة الثالثة تشبه قطيعاً، لكنّهُ صار الاسم الذي اتخذتْه.

عهد إلى القطيع مهمّة قراءة الأعمال غير القابلة للتصنيف.

كانت بنيته أقلّ صلابة من الجماعة والقِسم؛ إذ كانت تلائم طبيعة الكتب غير القابلة للتصنيف التي لطالما رفضت الانتساب إلى أيّ مدرسة، ولم تعترف يوماً بتجزئة المعرفة إلى مجالات، وتجاهلت كلّ مسائل الأجناس. كان ثمّة قطيع فرعي يُعنَى بـ«المرضى»، وآخر مُخصّص لـ«المجانين» -لكن خط التماس بين هذين الأخيرين والكتب العادية كان اعتباطياً- لكن ظلّ كلّ عضو من القطيع حرّاً في اختيار كتبه. كان يكفيه أن يقرأ ويسجل علامة «تمّت قراءته» في سجلّ القرّاء الكبير.

ظننت العمل ضمن القطيع مريحاً، فلم يكن الضحك ممنوعاً. كان الجميع يضحكون ويعملون في آن. كان عملاً جيّداً رغم بعض التجاوزات في السلوك وانتهاك الهدوء المطلوب داخل قاعة القراءة.

رغم أنه لم تتبقّ تصنيفات أخرى من الكتب، تشكّلت المجموعة الرابعة، واتّفق أعضاؤها على الاصطفاف تحت راية الكتيبة.

عُهد إلى الكتيبة قراءة المخطوطات التراثية النادرة:

- الكتيبة الفرعية الأولى: المخطوطات.
- الكتيبة الفرعية الثانية: الرسائل.
- الكتيبة الفرعية الثالثة: الأوتوغرافات.

لم تكن هناك ملاحظات بشأن عمل الكتيبة الداخلي، سوى أن عدد قراء التراث القديم كان أقلّ. وهكذا انتهت الكتيبة من عملها في أقل وقت ممكن.

تم تعيين أعضائها ضمن الفرق الثلاث الأخرى. ذهب أوفرهم حظاً للهو ضمن فريق الكتب غير القابلة للتصنيف، واشتغل جزء منهم ضمن فريق العلوم والإنسانيات، ودعّم الباقي طاقم جماعة الآداب. كان ثمة أيضاً سلاسل لا تنتهي، وسير ذاتية كاملة، وكتب لشجرة العائلة، ونصوص لا ضرورة لطولها. أحياناً، كان لدينا انطباع بأنّ الأمر لا يتجاوز لفت انتباه القارئ لكيلا يجد الوقت والطاقة للكتب المنافسة:

- قصة غير مكتملة حول مملكة خيالية في نزاع دائم، مغامرات لا تنتهي، أحجيات لا حلّ لها، قصص حبّ معقّدة، جرائم قتل تدعى انتقاماً.

- حياتي في عشرين مجلّداً، ستّة آلاف صفحة بتفاصيل مملّة تعلّمنا أنّ الحياة اليومية نضال دائم.

- إلخ.

لفرط مراقبتي لهم، يسعني القول إنّ القرّاء المتعاقدين كانوا أعواناً ذوي فائدة كبيرة، متطوّعين، ناجعين، مسؤولين، أكفّاء، منظّمين، جدّيين. كانوضا مخلصين لمهمّتهم، وعملوا بلا هوادة لقاء رواتبهم. لم يعرفوا للكسل سبيلا، واشتغلوا بلا انقطاع. لم ينقطع تركيزهم، ولم يتمكّن أيّ شيء من إلهائهم عن عملهم الذي أدّوه من الصباح حتى المساء، كامل الأسبوع، ليلاً نهاراً.

احتراماً لأوقات عملهم، كانوا يترقّبون موعد الراحة القصيرة ليتفسّحوا داخل الحديقة، أو ليتريّضوا مدة خمس عشرة دقيقة في القاعة المخصصة للرياضة. حين يتمكّن منهم التعب، كانوا يطلبون شيئاً من الراحة فيتمدّدون على نوع من أسرّة المخيّمات كان في حوزتهم. بعد ذلك، كانوا يعودون إلى سالف نشاطهم بحيوية تامة.

لقد تحلّوا بروح الفريق، واستعانوا أحدهم بالآخر فيما بينهم. استنتجنا أن القارئ المتعاقد في وسعه دوماً الاعتماد على زملائه ساعة المرض والتعب والملل. مهما كانت الظروف، لم تضعف حرفيتهم في مجال لم يكن يمثّل مهنهم أساساً.

بدوا ناجعين، وتحلّوا بالسرعة منذ البداية. كنت على يقين بأنّهم سيرحلون باكراً، ولا يستطيعون مجاراة النسق، فيصيبهم الإرهاق، ويبطئون. على خلاف ذلك، كانوا يقرؤون بسرعة أكبر، كأنّهم يزدادون مقدرة مع مرور الأيام. وبدا لي كأن رؤوسهم ازدادت حجماً في نهاية عقودهم.

ورغم ذلك، لا يسعنا القول إن مهمتهم كانت يسيرة. ليلاً نهاراً، كانوا يكررون الحركة ذاتها: يتناولون كتاباً ويمسحونه ضوئياً بواسطة نظاراتهم. ليس أمراً سهلاً، صدّقوني. وهكذا، صفحة إثر صفحة، وكتاباً إثر كتاب، ويوماً بعد يوم، أتمّوا مهمّتهم والتزاماتهم.

يُقال إنّه ليس ثمة شغل في المكتبات. سيفنّد المتعاقدون هذا الرأي قطعاً. يوم توقيع عقودهم، قال مدير المجموعات في المكتب: «حمداً للرب، يوجد عمل كثير هنا». لم يأخذ المتعاقدون جملته على محمل الجدّ. كانوا يتساءلون عن دور الإله في الأمر، لكنّهم فهموا لاحقاً أنّ أهمّ لفظ في الجملة كان العمل.

لم يلبثوا أن لاحظوا العراقيل، التي انتصبت أمامهم، ووجدوا لها حلولاً ابتداء بالمشكلات التقنية، مروراً بتلك التي تتعلّق بإدارة العمل. وأثناء فترات الضغط الكبرى، حين كانت الإدارة تدفعهم إلى المزيد من الإنتاج، أظهروا نجاعة فائقة دون أن يتخلّوا عن هدوئهم.

كان حرياً برقمنة المجموعات أن تتمّ في أجل قصير؛ لأنّ بعض الكتب لم تكن على ما يرام. كانت مريضة، ضعيفة، منهارة، قلقة، كانت حالتها السيئة بادية للعيان. رغم أن الوضع البيئي كان مستقراً، ومعدلات الحرارة والرطوبة تحت السيطرة، إنّ شيئاً من العفن قد غزا بعض الصفحات. كان وجود هذه الجسيمات على شكل بقع ملوّنة تجتذب قمل الكتب ليقتات عليها.

كانت الصراصير والعثّ والسوس والقوارض تقضم الورق والجلد. صارت الكتب القديمة في خطر في نظر الإدارة. لم يكن من السهل مقاومة هذا التدهور، فكان من الضروري صنع نسخ للحفظ.

لخدمة المتعاقدين، اضطرّ عَمَلة المخازن إلى العمل بإيقاع جنونيّ. كانوا ينهون أسبوع العمل مرهقين بحالة من الشدّ العضلي شبيهة بحالة عداء مسافات طويلة يجتاز 42.195 متراً دون أن يقدر على تجاوزها بمتر واحد، فينهار حالما يطأ خط الوصول. أعلم أنه تمّ عدّ إصابات كثيرة ضمن صفوف العَمَلة ثلاثة أرباعها ناتجة عن حوادث وكسور من الطرافة بمكان في كامل تاريخ القراءة في المكتبات.

في أحد الأيام، قفز أحد الكتب إلى قاعة القراءة بصفة غير متوقّعة. كان غلافه رخواً، وورقه عادياً، وحبره سيئاً، من النوع البخس الثمن، كان كتاباً صغيراً دون خصال تذكر. كان يبدو أكبر من سنّه بغلافه المهترئ.

حسب الأرقام التي في حوزتي، لم يقرأه سوى مئة وعشرين شخصاً، وقد تصفّحه ما بين مئتين إلى ثلاثمئة. لم يكن يعلم بوجوده الكثيرون، ولم تكن حياته سهلة بالمرّة. لقد تعرّض لسوء المعاملة منذ شبابه؛ إذ كانت تتقاذفه الأصابع القذرة دون مبالاة بآلامه، وتذره في حالة سيئة بغلافه المطوي وصفحاته المهترئة. لست واثقاً بأنهم كانوا ليتجرّؤوا على أيّ كتاب كلاسيكي؛ أولئك الجبناء. لم يكن الكتاب الصغير المعوق يتطلع إلى هذه المعاملة، بل كان يرجو قليلاً من الاحترام.

علينا القول إن هذا الكتاب كان يشكو من إعاقة؛ فهو الذي لم يكن ينتمي إلى أي جنس قد ولد خلال فترة هيمنة الرواية، في أسوأ لحظة، في قلب موسم الرواية، في نهاية الصيف، حين يعود القراء من عطلهم متعطشين إلى الكتب الصادرة حديثاً، فيتمّ إخبارهم أنّ الروايات هي آخر ما صدر.

حين وصل الكتاب المعوق الصغير إلى المكتبات، ودخل إلى مجموعات المكتبات العمومية، وظهر في عالم القراءة، كانت الروايات قد استحوذت على القراء إلى درجة لم يتبقّ معها أحد من أجل الأجناس الأخرى التي عدّت شاذّة.

حاول الكتاب الصغير مداراة إعاقته بانتحاله صفة رواية. لم تكن فكرته سيئة بالمرّة. لسوء حظه، لم تنجح حيلته؛ لم تنطلِ على أمناء المكتبات، فتم حفظه ضمن الكتب غير القابلة للتصنيف. تمّ احتجازه على تلك الرفوف؛ حيث يغامر القليل بولوجها، بين كتابين يافعين يكسوهما الغبار. ودخل الكتاب المعوق الصغير طي النسيان. كان يظن أنه سيعيش دون قراء إلى الأبد، حتى أخذه أحد القراء المتعاقدين بين يديه ذات صباح جميل، وتوقف عند محتواه.

ذلك الصباح، أطال القارئ المتعاقد النظر إلى الغلاف الذي وجده جميلاً، واستحسن ملمسه. أُعجِب أيّما إعجاب بعنوانه: الكتاب المعوق الصغير. فتح الكتاب بكلّ فضول، ولم يكتفِ بمهمة تصويره، بل شرع يقرأه بتأنّ. لقد تملّكه الكتاب حتى صار يسمّيه كتابي. أثناء الراحة، حمل كتابه معه، وواصل قراءته محتسياً كوباً من القهوة. كان يجيب بتلكّؤ حين يربت أحد زملائه على كتفه، ويقطع المحادثة بإشارة ذات مغزى. لم يكن يشاء تبديد وقته في الثرثرة. وحده الكتاب كان مهماً، وكلّ ما يشغله عن قراءته كان يُعدّ اعتداء وضرباً من الإزعاج. كان الكتاب يشغل كل حواسه.

كان يتوقف عن القراءة من حين إلى آخر، فيرفع أنفه، ويستسلم للتفكير لبضع ثوانٍ، ثمّ يأخذه الكتاب مجدداً.

أضاع قارئنا مفهوم الزمن، ولاسيما ذلك الوقت المتعلّق بالإنتاجية، حتى نسي الالتحاق بمكتبه في موعده. كان لديه ما هو أفضل وأكثر أهمية ونفعاً.

انتهى زمن الراحة، لكنّ المتعاقد لم يعد إلى عمله بعد. رغم انتهائه من قراءة كتابه، كان يعيد قراءته ليتلذذ بإحدى الفقرات أو الفصول أو الجمل، ويرجئ لحظة فراقه له. كان يتحرق شوقاً إلى قراءته مجدداً. كان ليبقيه معه لو لم يطلبه آخرون. عبّر العديد عن رغبتهم في امتلاك الكتاب المعوق الصغير ليوم أو اثنين.

كان يكفي أن يبدي أحد المتعاقدين استمتاعه بقراءة أحد الكتب حتى يرغب فيه الآخرون. صار الكتاب المعوق الصغير، الذي كانت المكتبة تملك منه نسخة واحدة فحسب، مطمعاً كبيراً. قبل يومين، لم

يكن يثير اهتمام أحد، واليوم صار كلّ المتعاقدين يودّون اكتشافه وسبر أغواره في أقرب وقت ممكن.

حاولت، بوصفي أمينة مكتبة، أن أهدّئ من روع المتعاقدين، فاقترحت عليهم كتباً مشابهة، لكنّ الحيلة لم تنجح. كنت المذنبة لأنّني اقترحت عليهم كتباً من سلسلة مملّة لم يكد يتجاوز أحدهم الصفحة الثامنة منها حتى تسقط من بين يديه. كان يصرّ على مواصلة القراءة، لكنّه كان يشعر بتبرّم كلما تقدّم في القراءة. كنت أسمعه يزفر بحنق، ويتجشّأ، ويقهقه. بعد مضيّ عشرين صفحة، تجحظ عيناه وترتجف يداه، ويتصبّب جبينه عرقاً كأن به مسّاً. كنت أتخيل أنه سينقضّ على الكتاب أو ينتزع صفحاته ويمزق غلافه. للحؤول دون ذلك، كنت أسأله عن استيائه بنبرة هادئة ورقيقة:

- أكل شيء على ما يرام؟

كان يحدقّ فيّ بنظرته القوية ويقول:

- آسف لقول هذا، لكنّ هذا الشيء لا مكان له هنا. لقد طلبت منك كتاباً، ومنحتني شيئاً لا يمت بصلة إلى كتاب. هل قرأته على الأقل؟ لا؟ سأخبرك بملخّصه: إنها قصة كتاب يبكي حظه العاثر. لو تم تخييره لفضل أن يكون فيلماً أو مسلسلاً. إنه كتاب يطلب منا مشاهدة الفيلم الذي كاد يكون. ما زال يأمل اقتباسه إلى فيلم لو سنحت له الفرصة. إنه كتاب بالمصادفة، كتاب لا يحبّ الكتب الأخرى. أرى أن تجربة قراءته تشبه مشاهدة التليفزيون. صححي كلامي لو أخطأت، لكنني سمعت أن بعض مؤسسات المطالعة قد محت كلمة مكتبة من واجهاتها بتعلّة أنّ ذلك قد يحرج جزءاً من الحضور. الشيء نفسه هنا:

تعدّ القراءة أمراً مخجلاً، ومرهقاً يراد التخلّص منه لفائدة أنواع من المحتوى تتطلّب جهداً أقلّ.

بدل التخلص من الكتاب خفية، آثر المتعاقد تمريره عبر القاعة. عند رؤيته، تخلّى المتعاقدون عن حيادهم وأمطروه بتعليقات بذيئة. كانوا يختارون جملاً، وفقرات، وفصولاً، ليقرؤوها بصوتٍ عالٍ فقط ليسخروا من الكتاب. كانوا يشيرون بداية الى إحدى الجمل، ثم يضعون أصابعهم عند فقرات كاملة، ويبدون شتى أنواع الملاحظات. وانتشرت في القاعة ضحكة ساخرة لم أرَ لصخبها مثيلاً. ورافقت الضحكات ذاتها الكتاب المملّ إلى المخزن.

أما الكتاب المعوق الصغير، فقد قرأه كلّ القراء المتعاقدين، ومنحوه جائزة الآداب والإعاقة التي أنشؤوها للغرض. رغم فخره الكبير، أعلن الكتاب المعوق الصغير أن ذلك كان كثيراً عليه، فهو لا يتجاوز كونه كتاباً معاقاً صغيراً، لكنه استمتع بمنحه المتعاقدين لذة القراءة مجدداً، وسمح لنفسه بإسدائهم بعض النصائح، واقتراح بعض العناوين التي أثّرت فيه، ثم عاد إلى المستودع مرهقاً وسعيداً بعودة الرغبة فيه لأيام معدودات.

حملتُ الكتاب المعاق الصغير إلى ورشة صيانة؛ حيث تمّت تقويته، وأعيد تسفيره. عليكم رؤيته الآن. صار وسيماً، وقوياً، وصلباً، وعاد خمس سنوات إلى الوراء. وكِيل له المديح في أوساط القراءة، وصار يُعدُّ كتاباً جيّداً. أنا سعيدة برؤيته في هذه الحال. صار له أصدقاء وأعداء، وأصبح يتجوّل، ويتنفّس، ويعيش.

بين الحادية عشرة ومنتصف الليل، كانت قاعة القراءة هادئة، لكنّها لم تكن صامتة تماماً. كنت قد فتحت النوافذ لأجدّد الهواء فيها، فبدّدت أصوات السيارات والدراجات البخارية والباصات والمترو المعلّق كلّ أثر للهدوء فيها. لم ينزعج المتعاقدون، واستبشروا بأصوات المدينة.

كان المتعاقدون يتمددون على الأرضية، أو يفترشون الأرائك، ويتهيؤون لقضاء الليل في قاعة المطالعة، حين أخبرهم صوت معدني أن المكتبة كانت على وشك الإغلاق، ودعاهم ليسلكوا أحد أبواب الخروج في أقرب فرصة ممكنة. كان الصوت عذباً، لكن النبرة حازمة: لديكم خمس عشرة دقيقة.

بعد خمس دقائق، رأى المدير أن المتعاقدين يتلكؤون، فقال لهم:

- اخرجوا رجاء. ستغلق المكتبة أبوابها.

انتعل المتعاقدون أحذيتهم، وجمعوا أغراضهم، ونهضوا متثائبين، وولجوا منصة الإعارة متثاقلين.

قبل منتصف الليل بخمس دقائق، طلبوا استعارة بعض الكتب لإنهاء عملهم.

قلت لهم:

- مستحيل. لقد استقرّت المطبوعات في المخازن قبل منتصف الليل. هكذا تدار الأمور.

أمام إصرار المتعاقدين، أخبرتهم أن القرار ليس بيدي، وأن الأمر غير قابل للتفاوض.

قلت لهم وأنا أزمّ شفتيّ:

- المكتبة مغلقة. انتهى الأمر.

أعاد المتعاقدون الكتب، وجمعوا حقائبهم، وارتدوا معاطفهم، وألقوا تحية الوداع. كان واضحاً أنه لم يعد لهم مكان هنا، ولا حتى أنا. صار الوقت متأخراً. تملكني الإرهاق. نهضت لأغلق النوافذ، ثم رافقت المتعاقدين إلى بوابة الخروج.

قبل الإغلاق، أراد المدير الثناء على عمل المتعاقدين. وقال مراراً إن عليهم الشعور بالفخر. ألح المدير في كلمته على الفخر وربطه بالاستحقاق؛ لفظان يُستعملان إزاء من يعمل بجدّ لقاء راتب هزيل.

قال المدير إنه تم تصوير كلّ المطبوعات بفضل عمل المتعاقدين، وإن المكتبة الكبرى ستكتب صفحة جديدة من تاريخها. غداً يزور قراء جيل اليوم مكتبة جديدة بروح جديدة في فضاء جديد.

رفع سبّابته وتلفّظ بهاته الكلمات الثلاثة: تجديد، ومعلومات، وخدمات. عندها، أغلقت بوابات المكتبة، وانطفأت أنوارها، وغاب المدير في الظلام.

افترضت أنه ظل داخل المكتبة ليسهر على إدارة العمليات: إنارة الفوانيس، وتشغيل كاميرات المراقبة، وتحيين كتالوجات الكتب.

إعدادات.

تحيين

انطلاق

تمّ تحيين الكتالوج.

غادر القراء المتعاقدون المكتبة عبر الأرصفة المظلمة. بمحاذاة نهر كئيب، راحت أفكارهم نحو أشهر القراءة الثلاثة. أراد أحدهم الحديث عن كتاب أعجبه، لكنه عجز عن ذكر عنوانه، أو تلخيص موضوعه، بل عجز عن ذكر جملة منه على الأقل. لم يقدر على إعلان اسم إحدى الشخصيات. وحذا الجميع حذوه. رغم محاولاتهم المضنية، لم يقدروا على تذكر ما قرؤوه. لقد غادروا المكتبة منذ عشر دقائق كانت كافية لنسيان آلاف الصفحات التي قرؤوها وصوّروها. تسرّبت كل الكتب من أذهانهم. واصلوا سيرهم مستنتجين أنهم لم يقرؤوا يوماً أو أنهم قرؤوا دون جدوى. لقد سُرقت منهم قراءتهم، وبقيت ذاكرتهم هناك، داخل نظام الحاسوب. ساروا الليل كاملاً منشدين:

لا شيء نقرأه

ولا مكان نقصده

المكتبة مغلقة

وصرنا يتامى

صرنا يتامى

في هذه الأثناء، تملّكني الخوف من فكرة المكتبة من الجيل الجديد التي ستحلّ محل المكتبة القديمة.

تمام التاسعة صباحاً، أُغلِقت الأبواب، ووُضعت لافتة على المدخل الرئيسي: المكتبة الكبرى مغلقة استثنائياً هذا اليوم. لم تكن هذه التعليمات تشمل القراء فحسب، فحتى طاقم العمل صار ممنوعاً من الدخول. عاد الموظفون إلى بيوتهم، واقتيد عَمَلة النظافة خارجاً.

رغم أنه، حسب شهادة كبير عَمَلة المخازن، وفي تمام الثامنة إلا عشر دقائق، كانت الأمور على ما يرام. كان يبدأ عمله الثامنة صباحاً، لكنه أتى قبل عشر دقائق حرصاً منه وتفانياً في خدمة المطالعة العمومية، كدأبه طوال مسيرة ثلاثين عاماً.

وثّقت كاميرات المراقبة كلّ شيء.

السابعة وخمسين دقيقة، وضع شارته أمام القفل الإلكتروني في مدخل مأوى السيارات.

7.51، دلف إلى المصعد.

7.54، دخل استراحة العَمَلة، وصنع القهوة للفريق كاملاً؛ لأنه كان أول الوافدين.

أظهر باقي شريط كاميرا المراقبة كبير الخزنة يحتسي قهوته لخمس دقائق في كوب كبير يحمل شعاراً مألوفاً: تذوقوا كنوز مئة وخمسين ألف سنة من القراءة.

تمام الثامنة، ظهر ينظر إلى ساعته، ثم نهض ليلقي نظرة على الممر، وعاد إلى الاستراحة؛ حيث سكب لنفسه قهوة ثانية احتساها في جرعتين قبل أن يغسل كأسه، ويضعه على حافة المجلى، ليغادر الاستراحة نحو قاعة المطالعة، ويشعل أضواءها.

كانت مهمته الصباحية الأولى تُختزَل في دفع عربات الكتب المستعادة، ووضعها في سلال خلف منصة الإعارة. لكن أول عربة اعترضته اليوم كانت خالية تماماً، والثانية والثالثة أيضاً. كان ذلك يعني أن كتاباً واحداً لم يغادر الرفوف طوال الأربعة والعشرين ساعة الماضية.

رفع حاجبيه في دهشة:

- لا أصدّق ذلك.

لقد رأى أموراً عجيبة طوال اثنتين وثلاثين سنة، ولو كان يعلم أهميتها لوضعها في كتاب. راح يتخيل كتابه مليئاً بالطرائف، فيه فصل كامل عن ذلك اليوم العجيب؛ حيث خلت كلّ الرفوف من الكتب.

طمأن الخازن نفسه، ظاناً أن عملية إعادة توزيع كاملة للكتب قد تمّ إقرارها ليلة أمس دون علمه. عادةً، يتم إخبار كبير الخزنة بكلّ ما يجري داخل مجموعات الكتب. أدرك بخبرته الطويلة أن خللاً ما قد وقع دون أن يتم إعلامه. لم تكن تلك أول مرّة.

أكثر شيء أثار قلقه كان تأخر زملائه عن موعد العمل. تمام الثامنة وتسع عشرة دقيقة، كان عامل المخازن الوحيد الموجود في المؤسسة. أمر غريب.

بقيت أربعون دقيقة قبل فتح البوابات.

ما الذي عليه فعله في هذه الأثناء؟

ما الذي قد تفعله أمينة مكتبة لو كانت مكانه؟

ستلقي نظرة على الكتالوج.

ولج الكتالوج بنقرة واحدة.

معايير البحث: كلمات العناوين.

مثال: كتاب فتيّ غاضب

النتائج: صفر.

خمن كبير الخَزَنة أنّ الأمر غير عادي. كرّر بحثه عن كتب أخرى، دون جدوى،

ثم مرّ إلى عملية بحث مركّبة مستعملاً (و/أو/دون)

بلزاك وفلوبير= صفر نتائج

بلزاك دون فلوبير= صفر نتائج.

بلزاك أو فلوبير= صفر نتائج.

صفر نتائج مهما كان اسم المؤلف، أو الموضوع. صمت مروّع.

اتجه نحو المخازن. بدأ ببرج الروايات، ثم ذهب يتفقد الأبراج الثلاثة الأخرى.

وجد هناك صفوفاً من الأشجار بين الرفوف، وطريقاً ترابية، وجدولاً تغطيه الأغصان، وأعشاباً طفيلية، وأشجاراً مثمرة، وكتباً في حالة يرثى لها.

تناول كتاباً، فتحه، وتصفّحه. كانت نصوصه وصوره ممحوّة تماماً. وقد تمّ امتصاص حبره كأنّ مصاص دماء مرّ من هناك. كان الكتاب محطّماً أبيض الصفحات.

راجع عشرات الكتب، وراح قلبه ينبض بعنف.

لقد عرفت الكتب جميعاً المصير ذاته، فأصبحت لا تُقرأ، خالية الصفحات. بين ليلة وضحاها، خسرت المكتبة كلّ مطبوعاتها، تمّ محو كتالوجها، ونمت غابة في مستودعاها. كيف يخبر المدير بذلك؟

عاد إلى مكتبه بحذاء يلطّخه الطين، وأنامل جرحتها الأغصان. تناول هاتفه، واتصل برقم يحمل أربعة أرقام.

- سيدي، لقد حصل أمر ما... يصعب شرحه... أمر مهول... الكتب... غابة... لا شيء يُقرأ.

- هوّن عليك. لا تقلق. كلّ شيء تحت السيطرة. تعالَ إلى مكتبي. سأشرح لك الأمر.

أدار المدير شاشة حاسوبه باتجاه الخازن، ودعاه إلى متابعة ما يجري.

قال له:

- لا داعي للفزع. أنت لم تفهم مشروعنا الجديد. ذلك كلّ شيء. آه، لم نعلمك؟ حسناً، سترى. الأمر بسيط. من الآن فصاعداً، لا يوجد سوى كتاب واحد مدرج في الكتالوج، كتاب وحيد يحتوي على كلّ الكتب الأخرى.

معايير البحث: عنوان

مثال: كتاب شامل

نتائج: 1

نوع: وثيقة إلكترونية

عنوان: كتاب شامل/ لا اسم له

نوع الوثيقة الإلكترونية: نصوص، صور ثابتة

نشر: مختبر المكتبة الكبرى

الناشر: مؤسسة مختبر المكتبة العمومية

وصف مادي: وثيقة رقمية

موضوع: كل شيء

جنس: شعر، رواية، قصص، أدب، مقال.

إنها مرحلة انتقالية تتطلّب التجديد والمخاطرة[1]. مع رقمنة الوسائط، صمّمنا لكم فضاء حديثاً، مسلّياً، مليئاً حيويةً، آمناً. مرحباً بكم إلى مختبر المكتبة الكبرى.

كلّ شيء جديد، وممتع، ومختلف. إنها تجربة لنوع جديد، ودعوة إلى الاكتشاف والتجريب. المغامرة بين أياديكم. تعالوا إلى عالم مجهول.

الفضاء هو الرسالة[2]. فضاءات للحوار. فضاءات حسب الثيمات والموضوعات، أثاث قابل للتشكيل بتشكيلة من الألوان والإضاءات المتعددة؛ اختاروا بيئتكم المفضلة، واتخذوا مجلساً مريحاً؛ فمختبر المكتبة الكبرى فضاء ألعاب مفتوح على مدار اليوم، ومؤسس على الودّ والعلاقات الاجتماعية المثمرة. سيبدو لكم المكان كبيتكم الثاني من فرط حداثته وألفته.

حاسوب، ورفاهية، وكابتشينو. مهما كنتم خبراء أو عديمي خبرة، فإن محترفي المعلومات يستقبلونكم، ويعرضون عليكم خدمات حسب الطلب: مساعدة شخصية على البحث، مرافقة، نصائح، محاضرات. ومن أجل راحتكم، ثمة مطاعم ومشروبات طاقة تحت الطلب.

---

1 وردت الجملة الأصلية بالإنجليزية.

2 معارضة للنظرية القديمة «الوسيط هو الرسالة».

لن تغيب عنكم الابتسامة في الداخل. ثمة مواقيت مرنة، وشاشات لمسية، وأحدث التجهيزات التكنولوجية، وموارد استثنائية في مجال التعليم والمعلومات الرقمية، وطاقم ظريف موجود دوماً. العبوا وتثقفوا وأنتم تبتسمون.

مشروع الكتاب الشامل. سيتم تأمين التراث بفضل مشروع الكتاب الشامل. في نهاية هذا البناء الهائل، سنتمكن من عرض 14 مليون كتاب مجتمعة في كتاب واحد. وداعاً لتناثر الموارد والمحتوى. كلّ الكتب في كتاب وحيد. استشرافاً للمستقبل، وباتفاق مع المجلس العلمي ووزارة المعرفة ونشر العلوم، قرّر مختبر المكتبة الكبرى إنهاء مسيرة الكتب الورقية، والتركيز على الموارد الرقمية الخفيفة.

تمام العاشرة: إطلاق مختبر المكتبة الكبرى.

10.03: دخول المدعوّين، والممولين، والعلماء المساهمين في المشروع.

10.05: استقبال الضيوف.

10.10: إفطار.

10.15: تدشين.

10.16: كلمة المدير: «في مديح الخفّة».

10.20: كلمة الفلاسفة: «ما بعد المكتبة».

10.30: عرض وتقديم الكتاب الرقمي الشامل.

10.45: جولة بين الأبراج، واكتشاف المشروع «الخضرة تغزو الأبراج».

12.00: نهاية الاحتفالات. دخول الجمهور العريض.

13.15: قطع التيار الكهربائي.

13.16: إخلاء البناية.

17.00: نتيجة لغزارة الأمطار، تغزو المياه جزءاً من القاعة، وتغرق الدور الأرضي.

18.00: تعلن الإدارة استعداد الفرق الفنية لمواصلة الخدمات، لكن الوضعية معقّدة جداً.

18.15: تسرّب آخر للمياه في قاعة القراءة القديمة.

18.30: التوصل إلى سبب التسرّب الثاني، واتخاذ إجراءات إزاءه.

20.00: بلاغ للإدارة يعلن تأجيل افتتاح مخبر المكتبة الكبرى إلى أجل غير مسمّى.

على إيقاع أغنيتهم: نحن اليتامى/ نحن اليتامى، تسكّعوا طويلاً على الأرصفة دون هدى. فجأة، ظهر الطريق، وغادر اليتامى العاصمة نحو الأحياء، والضواحي، والقرى الصغيرة. حطّوا الرحال فجأةً في منطقة صناعية على ضفاف بحيرة. زاروا المستودعات الفارغة، والمكاتب الخالية في مصنع تكرير نفط. أقاموا فيه حفلاً ذلك المساء دون موسيقا أو مشروبات.

واصلوا رحلتهم، واجتازوا مدينة أشباح بلديتها منهارة، وأماكن العبادة فيها مغلقة، ومتاجرها محطّمة؛ ثم دخلوا مدينة خالية أخرى، واختبؤوا داخل منزل خرّبته الفيضانات. بعد ذلك اجتازوا قرى ريفية كئيبة، ومراعيَ محروقة، وبِركاً قذرة، وشواطئ كمصبّ الفضلات. هنا وهناك انتشرت لافتات ملكية خاصة، ومنعتهم دخول الغابات. لم

ترحّب بهم القرى، وكانت حياة المدن الكبرى باهظة. لم يستقروا في أيّ مكان، واكتفوا بالعبور.

ألا يوجد بلد أقلّ ترحاباً؟ للأسف، لا. كان بلدهم يعاملهم كالغرباء. بعد أسابيع من التسكّع، أدركوا أنهم لا يملكون سكناً. لم يتبقَّ لهم من حلٍّ سوى تحطيم الأقفال، وكسر الأبواب. حين قدم الشتاء ببرده وثلجه ومطره، شكّلوا مخبأً من أعواد الخشب. وعندما طردهم الأهالي، لجؤوا إلى الخيام وحطام السيارات. حين تحسن الطقس، عادوا إلى الطريق منشِدين: نحن اليتامى/ نحن اليتامى.

ذات صباح، تحت سماء الضواحي الصافية، عثروا على بناية سوداء أقيمت على شبه جزيرة. اقتحموا سورها، ووجدوا أنفسهم داخل فضاء شاسع. بين الأنقاض، عثروا على مئات من الكتب المتّسخة، لكنّها كاملة الأجزاء، فعلموا منها مكان وجودهم. لقد وطأ اليتامى أحد المصانع الذي رفع مطولاً شعار الرّقي، وكان رمزاً للنموّ، حين كان لكلمتي رقيٍّ ونموٍّ معنى.

طوال سنوات ازدهاره، كان المصنع فخراً للصناعة والنضال الاجتماعي. لكن المنافسة كانت ضارية، فنتج عنها مواقع إنتاج جديدة تستجيب للتحديات التقنية والتجارية. وهكذا صار المصنع بالياً، وقرّر مالكوه إغلاقه. قيل إن متحف فنّ معاصر قد يشغل مكانه، ثمّ تحدثوا عن قطب تكنولوجي حديث، وبعد ذلك قيل إنه مدينة ألعاب. لم ينجُ النقاش حول المشاريع من الخصام والصراعات، وتمّ التخلي عن تلك المشاريع الواحد تلو الآخر. في الأثناء، التحق المعماريون والعَمَلة بفضاءات إنتاج حديثة، وأُهمِلت كلمة مصنع تماماً مثل كلمة مكتبة

المؤسسة. زعموا أنّه لضيق الفضاءات الحديثة لم يكن متاحاً إقامة مكتبة. وذهبت الميزانية المعتمدة لها إلى جيوب وكالات الأسفار. أما كتب المكتبة فقد تُرِكت هناك عرضة للحشرات، والقوارض، والغبار.

طوّر اليتامى مكتبة مؤسسة قديمة تألفت من وثائق تقنية وكتب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. صار فيها أيضاً كتب حكايات، وبستنة، وطبخ، ورياضة، وترفيه، وأسفار، وسير ذاتية، وروايات. كان فيها أيضاً نصوص متناثرة داخل البناية: أوراق متطايرة، أشعار مجهولة النسب، بيانات معلقة على الجدران أو في شكل مناشير. كانت مجموعة أفكار جماعيّة تروي حقبة كانت المكتبة تساهم بها في النضال، والفرحة، والاحتفالات.

صنّف اليتامى الكتب ورصفوها فوق رفوف من ألواح التحميل. لقد افتتحوا فضاء وحيداً من نوعه، مضيافاً، سهل الولوج. لقد أسّسوا المكتبة السوداء.

كانت المكتبة السوداء تفتح أبوابها من الإثنين إلى الاحد، من العاشرة صباحاً حتى منتصف الليل. صارت تمكّن القراء من القراءة على عين المكان، ومن استعارة الكتب في منازلهم. اتركوا بطاقات هوياتكم في جيوبكم: لا تتطلب المكتبة أيّ شكل من الانخراط، ولا تسلّم أيّ بطاقة. صار الولوج إلى الكتب حرّاً ومجانياً.

في غياب اللوائح، دُعِيَ القراءُ إلى إعادة الكتب المعارة خلال أجل معقول. وحتى لو نسي أحدهم إعادة مطبوعة عن سهوٍ أو سوء نية، لا خشية عليه؛ لأن المكتبة لن تقاضيه.

لم تكن المكتبة تملك ميزانية أو داعمين، أو ممولين، وكانت في حِلّ من رفع التقارير إلى أحد، ولم تكن مطالبة بتبرير إنفاق القروض. كانت المكتبة السوداء مستقلّة تماماً.

بعد مساهمة الأعضاء المؤسسين، قام القراء بإيداع مكتباتهم الخاصة أو جزء منها. وهكذا امتزجت مجموعات من الكتب الواضحة المعالم بكتب الترفيه، فوُجدت كتب الخرافات جنباً إلى جنب مع رواية عن الحرب، وكتب نظريات فيزيائية بجوار رواية مغامرات. أجناس متباعدة غالباً تمكنت من الاقتراب من بعضها البعض، وصارت تتناقش، وتتواجه، وتفكّر. كانت تغضب ثم تبحث عن وئام. لا تلزم الكتب الصمت هنا، بل تعبّر عما في داخلها بصوت عالٍ. كانت المكتبة السوداء صاخبة بسببها، لكن أحداً لم يتذمّر بعد.

انخراطاً منها في ركب التطور، صارت المكتبة السوداء تنتج كتبها بنفسها، بمعدّل عشرين عنواناً كلّ سنة. في البداية، لم يفكّر القراء في الكتابة. كانت المكتبة السوداء من أغراهم بالأمر.

وحدة المكان، ولوج مباشر إلى المعرفة، راحة البصر، بيئة سليمة. في نهاية الأمر، لا يوجد مكان أفضل من المكتبة لإبداع الكتب.

ذات صباح، قِيلت جملة تزعم أنّ كلّ مكتبة ينقصها كتاب ما، ما اضطرّ أحدهم إلى التعليق عليها، فكتب جملة مفادها أنّ المكتبة تعيش طويلاً بسبب هذا النقصان، الذي تحاول جاهدة أن تعوضه أكثر مما تملكه وتحاول الحفاظ عليه. قيلت جملة ثالثة رداً على الجملتين السابقتين: إنّ المكتبة المكتملة مكتبة ميّتة. أخيراً، اقترحت جملة رابعة: تأليف الكتاب الناقص.

تشكّل الكتابُ جملةً بعد جملةٍ. الكتابُ دون اسم مؤلّف. أراد أعضاء المكتبة السوداء أن يظلّ مجهولَ الكاتبِ، ليس لأنّهم قد رفضوا توقيعه بأسمائهم، وليس احتراماً للملكية الفكرية أيضاً. شارك الجميع في كتابته، ولم يكن من السهل معرفة من كتب هذه الجملة أو تلك. هكذا وُلِد أوّل كتاب للمكتبة السوداء.

- من أنت أيها الكتاب المولود حديثاً؟
- أنا كتاب يتيم.
- من أنت أيها الكتاب اليتيم؟
- لن يفلح بحثكم عن مالكي حقوق تأليفي. لا مؤلّف لي، ولا حقوق تأليف. لا أعلم من يكون والداي. لقد كتبتني ألف يد.
- من أنت يا من كتبتك ألف يد؟
- أنا طيّع، ومتحرّك، ومنفتح.
- من أنت أيها الكتاب الطيّع والمنفتح؟
- أنا قصيدة قبيحة.
- من أنت أيتها القصيدة القبيحة؟
- أنا قصيدة لا تملك ملامح القصيدة. بيد أنه لو اقتنع القارئ بأنّ النص الماثل أمامه قصيدة، فحينئذٍ ستبرز القصيدة. افتح عينيك جيّداً، وأنصت إليّ.

لن تعني لك أسماؤنا شيئاً
ننتمي إلى العائلة السعيدة
إلى القرّاء المجهولي الهويّة
نحن اليتامى

ونقرأ ونكتب
وننشر ونتلقّى
ونستقبل ونعيد القراءة
ونعلّق ونعيد الكتابة
دفعتنا القراءة نحو الكتابة
نحن متوحّشون وعضلاتنا مفتولة
نحن فضوليون لا نشبع
دفعتنا القراءة نحو الكتابة
دفعتنا الكتابة نحو القراءة
دفعتنا القراءة نحو المكتبة
لكن المكتبة عرفت أزمة
ظنت نفسها مكتملة
فتركتنا يتامى
كتاب ما سينقصها دوماً
سنؤلّف الكتاب الناقص
سيركض عبر الطرقات
وسيجوب الدروب
وينزلق في الطرق البطيئة والسريعة
ويسافر دون خرائط
وسنقرأ وسنكتب

وسننشر ونوزّع
وسنتلقّى ونقرأ ثانية
وسنعلّق ونعيد الكتابة
إن الكتاب مشكلة
لنا لها حلّ وحيد
أن نقرأ ونكتب كتباً ذات مشاكل
إن مصير الكتب شائك
ومشكلة الكتب مصيرية
على الكتب تحديد مصيرها
ومصير الكتب بين أيادينا
المكتبة الوحش من ابتكار هيبوليت مارتينيز_أباسكال

CYRIL MARTINEZ

جدل

سيريل مارتينيز

المكتبة المظلمة

عزيزاتي أمينات المكتبة:

يمكنكنّ الاعتزاز بامتلاك قاعة قراءة مليئة، لكن أتعلمنَ من يشغلها؟ من هم؟ من أيّ سلالة خبيثة؟ ثمّ ماذا يفعلون هنا؟ هل يشتغلون؟ علامَ يشتغلون؟ لمصلحة من؟ ألديهم مشغّل أم تراهم يعملون لحسابهم الخاصّ؟ أَتمّ حثّهم على المجيء أم جاؤوا من تلقاء أنفسهم؟ هل قَدِموا بسبب دوافع خاصة؟ وفي هاته الحال، أيّة دوافع؟ هل تكفي زيارة المكتبة ليُعدَّ المرء قارئاً؟ كم قارئاً يوجد في هذه القاعة؟ هل علينا أن نطلق عليهم صفة قراء؟ كيف نميّز قارئاً حين نلمح أحدهم؟

ستقلنَ لي: ليست الكتب من خلق القرّاء. هذا صحيح فالفضل لا يعود إلينا، ولا يعود إلى المكتبة أيضاً. كان ثمّة قراء قبل افتتاح المكتبة، وسيبقون حتماً بعد فنائها. كان الناس يقرؤون قبل بداية صدور الكتب، وسيواصلون القراءة حتى بعد إصدار آخر كتاب. ليس السؤال بشأن معرفة ما إذا كانوا سيواصلون القراءة، بل بشأن ماذا سيقرؤون، وكيف؟ هل سيقرؤون كتباً؟ وكم منّا سينجو؟ وما مصير أولئك الذين يلفظهم القرّاء؟

أريد أجوبة.

9 786030 428144

JADAL.PUBLISHING

JADALBOOKSTORE.COM